

احتراماً لهم، لا خوفاً على أنفسهم، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفاً لا احتراماً، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين، فإنهم مستعدون^(١) لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبين منهم، ويتضح اتصاحاً عظيماً اعتزال المؤمنين وترك قتالهم، فإنهم يقاتلون، ولهذا قال: ﴿فإن لم يعتزلوكم وياقتلوكم وياقتلوا السلم﴾ أي: المسالمة والمواعدة ﴿ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ أي: حجة بينة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة، فلا يلومون إلا أنفسهم.

﴿٩٢﴾ ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله، وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً﴾ هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمتنع ويستحيل، أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن، أي: متعمداً، وفي هذا الإخبار بشدة تحريمه، وأنه منافي للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك إما من كافر، أو من فاسق قد نقص إيمانه نقصاً عظيماً، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك، فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية، التي من مقتضاها محبته وموالاته، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي: أذى أشد من القتل؟

وهذا يصدق قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب

فرتين أمر بتركهم وحشم [عل] ذلك، إحداهما^(٢) من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال، فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال.

والفرقة الثانية قوم «حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم» أي: بقوا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فهؤلاء أيضاً أمر بتركهم، وذكر الحكمة بذلك في قوله: ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم فقاتلوكم﴾ فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام:

إما أن يكونوا معكم وقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم، وبين ترك قتال الفريقين، وهو أمرن الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم، فاقبلوا العافية، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك.

فهؤلاء «إن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً».

الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم، بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: «ستجدون آخرين» أي: من هؤلاء المنافقين. «يريدون أن يأمنونكم» أي: خوفاً منكم «ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها» أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن، أعماهم ونكسهم على رؤوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها.

فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين

أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم وياقتلوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً^(٣) المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات: المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه، فبعضهم تخرج عن قتالهم، وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم، فحكم بكفرهم، فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون قد تكرر كفرهم، وودوا مع ذلك كفرهم، وأن تكونوا مثلهم. فإذا تحققت ذلك منهم «فلا تتخذوا منهم أولياء» وهذا يستلزم عدم محبتهم، لأن الولاية فرع المحبة.

ويستلزم أيضاً بغضهم وعداوتهم، لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر موقت بهجرتهم، فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين، كما كان النبي ﷺ يجري أحكام الإسلام لكل من كان معه وهاجر إليه، وسواء كان مؤمناً حقيقة أو ظاهر الإيمان.

وأهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم» أي: في أي: وقت، وأي: محل كان، وهذا من جملة الأدلة الدالة، على نسخ القتال في الأشهر الحرم، كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة، محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم.

ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق:

(١) في هامش أ: (وقد ثبت في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ، خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا فأئز الله: «فما لكم في المنافقين فئتين» فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الحديد». وليس هناك علامة تدل على محل هذه الزيادة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أحدها.

(٣) في ب: سيقدمون.

بعضكم رقاب بعض». فعلم أن القتل من الكفر العملي، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

ولما كان قوله: ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً﴾ لفظاً عاماً لجميع الأحوال، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه بوجه من الوجوه، استثنى تعالى قتل الخطأ فقال: ﴿إلا خطأ﴾ فإن المخطيء الذي لا يقصد القتل غير آثم، ولا منجرىء على محارم الله، ولكنه لما كان قد فعل فعلاً شنيعاً، وصورته كافية في قبحه، وإن لم يقصده أمر تعالى بالكفارة والدية فقال: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ﴾ سواء كان القاتل ذكراً أو أنثى، حرراً أو عبداً، صغيراً أو كبيراً، عاقلاً أو مجنوناً، مسلماً أو كافراً، كما يفيد لفظ «مَنْ» الدالة على العموم، وهذا من أسرار الإتيان بـ «مَنْ» في هذا الموضع، فإن سياق الكلام يقتضي أن يقول: فإن قتله، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله «مَنْ».

وسواء كان المقتول ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، كما يفيد التنكير في سياق الشرط، فإن على القاتل «تحرير رقبة مؤمنة» كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والصحيح والمعيب، في قول بعض العلماء.

ولكن الحكمة تقتضي أن لا يجزىء عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتيق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضيع بعته، وبقاؤه في الرق أنفع له، فإنه لا يجزىء عتقه، مع أن في قوله: ﴿تحرير رقبة﴾ ما يدل على ذلك؛ فإن التحرير: تخليص مَنْ استحققت منافعه لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع، لم يتصور وجود التحرير. فتأمل ذلك، فإنه واضح.

وأما الدية فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد.

﴿مسلمة إلى أهله﴾ جبراً لقلوبهم، والمراد بأهله هنا هم ورثته، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدية داخلة فيما

ترك، وللدية تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه.

وقوله: ﴿إلا أن يصدقوا﴾ أي: يتصدق ورثة القاتل بالنعو عن الدية، فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو، لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت. ﴿فإن كان المقتول﴾ من قوم عدو لكم﴾ أي: من كفار حربيين ﴿وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة﴾ أي: وليس عليكم لأهله دية، لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم.

﴿وإن كان﴾ المقتول ﴿من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة﴾ وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق.

﴿فمن لم يجد﴾ الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسراً بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوادثه الأصلية شيء يفي بالرقبة، ﴿فصيام شهرين متتابعين﴾ أي: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر، فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض والحيض ونحوهما. وإن كان لغير عذر، انقطع التتابع، ووجب عليه استئناف الصوم.

﴿توبة من الله﴾ أي: هذه الكفارة التي أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عباده، ورحمة بهم، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيراً للقاتل خطأ.

﴿وكان الله عليمًا حكيمًا﴾ أي: كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، في أي: وقت كان وأي: محل كان.

ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء، بل كل ما خلقه وشرعه، فهو متضمن لغاية الحكمة، ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارة مناسبة لما

صدر منه، فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعق رقبة ويخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة، فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للبعد عن سعادته الأبدية إلى التبعيد لله تعالى بتركها تقريباً إلى الله.

ومدها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة في عددها، ووجوب التتابع فيها، ولم يشرع الإطعام في هذا الموضع لعدم المناسبة. بخلاف الظهار، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية، ولو كان خطأ، لتكون رادعة وكافة عن كثير من القتل، بأسعمال الأسباب العاصمة عن ذلك.

ومن حكمته أن وجبت على العاقلة في قتل الخطأ، بإجماع العلماء، لكون القاتل لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة، والمساعدة على تحصيل المصالح وكف المفساد [ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل حذراً من تحميلهم^(١)، ويخف عنهم^(٢) بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخففت أيضاً بتأجيلها عليهم ثلاث سنين.

ومن حكمته وعلمه أن جبر أهل القاتل عن مصيبتهم، بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل.

﴿٩٣﴾ ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾ تقدم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن، وأن القتل من الكفر العملي، وذكر هنا وعيد القاتل عمداً، وعيدا ترجف له القلوب، وتنصدع له الأفئدة، وتزعج منه أولو العقول.

فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو

(٢) في ب: عليهم.

(١) زيادة من هامش: ب.

مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتيبوا إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴿٩٤﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهاداً في سبيله، وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتهة.

فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة.

فالواضحة البينة لا تحتاج إلى تثبيت وتبين، لأن ذلك تحصيل حاصل.

وأما الأمور المشككة غير الواضحة، فإن الإنسان يحتاج إلى التثبيت فيها والتبين، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟

فإن التثبيت في هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة، والكف لشورٍ عظيمة، ما به يعرف دين العبد وعقله ورزاقته، بخلاف المستعجل للأمر في بدايتها^(١)، قبل أن يتبين له حكمها،

فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي، كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في الآية، لما لم يتثبتوا وقتلوا من سلم عليهم، وكان معه غنيمة له أو مال غيره، ظناً أنه يستكفي بذلك قتلهم،

وكان هذا خطأ في نفس الأمر، فلهذا عاتبهم بقوله: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

أي: فلا يحملنكم العرض الضاني القليل، على ارتكاب ما لا ينبغي فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل الباقي، فما عند الله خير وأبقى.

وفي هذا إشارة إلى أن العبد ينبغي له إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة له فيها هوى، وهي مضرة له أن يذكرها ما أعد الله لمن نهى نفسه عن هواها،

وقدم مرضاة الله على رضا نفسه، فإن في ذلك ترغيباً للنفس في امتثال أمر الله، وإن شق ذلك عليها.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بحالهم الأولى، قبل هدايتهم إلى الإسلام: ﴿كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم﴾ أي: فكما هداكم بعد ضلالكم، فكذلك يهدي غيركم،

وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها، خلقاً وأمرأ، وقد جعل الله سبحانه لكل ضدّاً يذافعه ويقاومه، ويكون الحكم للأغلب منهما.

فالقوة مقتضية للصحة والعافية، وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل الطبيعة، وفعل القوة، والحكم للغالب منهما، وكذلك قوى الأدوية والأمراض. والعبد يكون فيه مقتض للصحة، ومقتض للعطب، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه، فإذا ترجح عليه وقهره، كان التأثير له.

ومن هنا يعلم انقسام الخلق إلى مَنْ يدخل الجنة ولا يدخل النار، وعكسه، ومَنْ يدخل النار ثم يخرج منها، ويكون مكته فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث في سرعة الخروج وبطئه.

ومَنْ له بصيرة متورة يرى بها كل ما أخبر الله به في كتابه، من أمر المعاد وتفاصيله، حتى كأنه يشاهده رأي: عين.

ويعلم أن هذا هو مقتضى إهيته سبحانه، وربوبيته، وعزته، وحكمته، وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه، فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته، كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره.

وهذا يقين الإيمان، وهو الذي يحرق السيئات، كما تحرق النار الحطب، وصاحب هذا المقام من الإيمان يستحيل إصراره على السيئات، وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله في عدد أنفاسه، وهذا من أحب الخلق إلى الله. انتهى كلامه، قدس الله روحه، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً.

﴿٩٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

﴿٩٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها، خلقاً وأمرأ، وقد جعل الله سبحانه لكل ضدّاً يذافعه ويقاومه، ويكون الحكم للأغلب منهما.

فالقوة مقتضية للصحة والعافية، وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل الطبيعة، وفعل القوة، والحكم للغالب منهما، وكذلك قوى الأدوية والأمراض. والعبد يكون فيه مقتض للصحة، ومقتض للعطب، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه، فإذا ترجح عليه وقهره، كان التأثير له.

ومن هنا يعلم انقسام الخلق إلى مَنْ يدخل الجنة ولا يدخل النار، وعكسه، ومَنْ يدخل النار ثم يخرج منها، ويكون مكته فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث في سرعة الخروج وبطئه.

ومَنْ له بصيرة متورة يرى بها كل ما أخبر الله به في كتابه، من أمر المعاد وتفاصيله، حتى كأنه يشاهده رأي: عين.

ويعلم أن هذا هو مقتضى إهيته سبحانه، وربوبيته، وعزته، وحكمته، وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه، فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته، كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره.

وهذا يقين الإيمان، وهو الذي يحرق السيئات، كما تحرق النار الحطب، وصاحب هذا المقام من الإيمان يستحيل إصراره على السيئات، وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله في عدد أنفاسه، وهذا من أحب الخلق إلى الله. انتهى كلامه، قدس الله روحه، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً.

﴿٩٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

﴿٩٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

﴿٩٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

﴿٩٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

﴿٩٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

﴿٩٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

﴿٩٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

﴿٩٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

﴿٩٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

﴿٩٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

﴿٩٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

﴿٩٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

﴿٩٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

الإخبار بأن جزاء جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والحزني المهين، وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار. فعياداً بالله من كل سبب يبعد عن رحمته.

وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد، على بعض الكيثر والمعاصي بالخلود في النار، أو حرمان الجنة.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في تأويلها، مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم في النار ولو كانوا موحدين. والصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقق: شمس الدين بن القيم رحمه الله في «المدارج» فإنه قال - بعدما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها فقال:

وقالت فرقة: هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضي للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه.

وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتض لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع، فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص. فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها والخسرات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين.

ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات، اعتباراً بمقتضى العقاب ومانعه، وإعمالاً لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدها. وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية، والأحكام القدرية،

والسيئات، اعتباراً بمقتضى العقاب ومانعه، وإعمالاً لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدها. وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية، والأحكام القدرية،

والسيئات، اعتباراً بمقتضى العقاب ومانعه، وإعمالاً لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدها. وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية، والأحكام القدرية،

والسيئات، اعتباراً بمقتضى العقاب ومانعه، وإعمالاً لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدها. وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية، والأحكام القدرية،

والسيئات، اعتباراً بمقتضى العقاب ومانعه، وإعمالاً لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدها. وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية، والأحكام القدرية،

والسيئات، اعتباراً بمقتضى العقاب ومانعه، وإعمالاً لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدها. وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية، والأحكام القدرية،

والسيئات، اعتباراً بمقتضى العقاب ومانعه، وإعمالاً لأرجحها.

وكما أن الهداية حصلت لكم شيئاً فشيئاً، فكذلك غيركم.

فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة، ومعاملته لمن كان على مثلها، بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة - من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه، ولهذا أعاد الأمر بالتبين فقال: ﴿فتبينوا﴾.

فإذا كان مَنْ خرج للجهاد في سبيل الله، ومجاهدة أعداء الله، وقد استعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم، وأموراً بالتبين لمن ألقى إليه السلام، وكانت القرينة قوية، في أنه إنما سلم تهوداً من القتل، وخوفاً على نفسه - فإن ذلك يدل على الأمر بالتبين والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، فيتثبت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر ويبين الرشد والصواب.

﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ فيجازي كلاً ما عمله ونواه، بحسب ما علمه من أحوال عباده ونياتهم.

﴿٩٥-٩٦﴾ ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً * درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي: لا يستوي مَنْ جاهد من المؤمنين بنفسه وماله، ومَنْ لم يخرج للجهاد ولم يقاتل أعداء الله، ففيه الحث على الخروج للجهاد، والترغيب في ذلك، والترهيب من التكاسل والعود عنه من غير عذر.

وأما أهل الضرر كالمرضى والأعمى والأعرج، والذي لا يجد ما يتجهز به، فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين من غير عذر، فمن كان من أولي الضرر راضياً ببقوده، لا ينوي الخروج في سبيل الله لولا [وجود] المانع، ولا يحدث نفسه بذلك، فإنه بمنزلة القاعد غير عذر.

ومن كان عازماً على الخروج في

سبيل الله لولا وجود المانع، يتمنى ذلك ويحدث به نفسه، فإنه بمنزلة مَنْ خرج للجهاد، لأن النية الجازمة إذا اقترن بها مقدورها من القول أو الفعل ينزل صاحبها منزلة الفاعل.

ثم صرح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة، أي: الرفعة، وهذا تفضيل على وجه الإجمال، ثم صرح بذلك على وجه التفصيل، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم، والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير، واندفاع كل شر.

والدرجات التي فصلها النبي ﷺ بالحديث الثابت عنه في «الصححين»، أن في الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله.

وهذا الثواب الذي رتبته الله على الجهاد، نظير الذي في سورة الصف في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم﴾ إلى آخر السورة.

وتأمل حسن هذا الانتقال، من حالة إلى أعلى منها، فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات.

وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح، أو النزول من حالة إلى ما دونها، عند القدح والذم - أحسن لفظاً، وأوقع في النفس.

وكذلك إذا فضل تعالى شيئاً على شيء، وكل منهما له فضل، احتزرت بذكر الفضل الجامع للأمرين، لئلا يتوهم أحد ذم المفضل عليه كما قال هنا: ﴿وكلا وعد الله الحسنى﴾.

وكما [قال تعالى] في الآيات المذكورة في الصف في قوله: ﴿وبشر

المؤمنين﴾. وكما في قوله تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ أي: ممن لم يكن كذلك. ثم قال: ﴿وكلا وعد الله الحسنى﴾ وكما قال تعالى: ﴿فهماها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً﴾ فينبغي لمن بحث في التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال، أن يتفطن لهذه النكتة.

وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقالات، ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض، لئلا يتوهم أن المفضل قد حصل له الكمال. كما إذا قيل: النصراري خير من المجوس، فليقل مع ذلك: وكل منهما كافر. والقتل أشنع من الزنا، وكل منهما معصية كبيرة، حرمها الله ورسوله وزجر عنها.

ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرين عن اسميه الكريمين ﴿الغفور الرحيم﴾ ختم هذه الآية بهما فقال: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

﴿٩٧-٩٩﴾ ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً * إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً * فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً﴾ هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات، فإن الملائكة الذين يقضون روحه، يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم، ويقولون لهم: ﴿فيم كنتم﴾ أي: على أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟ بل كثرتم سوادهم، وربما ظاهرتموهم على المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير والجهاد مع رسوله والكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم.

﴿قالوا كنا مستضعفين في الأرض﴾ أي: ضعفاء مقهورين مظلومين، ليس لنا قدرة على الهجرة. وهم غير صادقين في ذلك، لأن الله وبخهم



واعتبر ذلك بالصحابة رضي الله عنهم، فإنهم لما هاجروا في سبيل الله وتركوا ديارهم وأولادهم وأموالهم لله، كمل بذلك إيمانهم، وحصل لهم من الإيمان التام والجهاد العظيم والنصر للدين الله، ما كانوا به أئمة لمن بعدهم، وكذلك حصل لهم، مما يترتب على ذلك من الفتوحات والغنائم، ما كانوا به أغنى الناس، وهكذا كل من فعل فعلهم، حصل له ما يحصل لهم إلى يوم القيامة.

ثم قال: **﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله﴾** أي: قاصداً ربه ورضاه، ومحبة لرسوله، ونصراً للدين الله، لا لتغيير ذلك من المقاصد **﴿ثم يدركه الموت﴾** يقتل أو غيره، **﴿فقد وقع أجره على الله﴾** أي: فقد حصل له أجر المهاجر الذي أدرك مقصوده بضمنان الله تعالى، وذلك لأنه نوى وجزم، وحصل منه ابتداء وشروع في العمل، فمن رحمة الله به وبأمثاله، أن أعطاهم أجرهم كاملاً، ولو لم يكملوا العمل وغفر لهم ما حصل منهم من التقصير في الهجرة وغيرها.

ولهذا ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال: **﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾** يغفر للمؤمنين ما اقترفوه من الخطيئات، خصوصاً التائبين المنيبين إلى ربهم.

عجز عن المأمور من واجب وغيره، فإنه معذور، كما قال تعالى في العاجزين عن الجهاد: **﴿ليس على الأعمى حرج ولا على المريض حرج﴾** . وقال في عموم الأوامر: **﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾** .

وقال النبي ﷺ: **﴿إذا أمرتكم بأمر، فاتوا منه ما استطعتم﴾** . ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده، وانسدت عليه أبواب الحيل، لقوله: **﴿لا يستطيعون حيلة﴾** . وفي الآية تنبيه على أن الدليل في الحج والعمرة ونحوهما يحتاج إلى سفر من شروط الاستطاعة.

﴿١٠٠﴾ **﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراعماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً﴾** هذا في بيان الحث على الهجرة، والترغيب وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده، أن من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته، أنه يجد مراعماً في الأرض وسعة، فالمراعم مشتمل على مصالح الدين والسعة على مصالح الدنيا.

وذلك أن كثيراً من الناس يتوهم أن في الهجرة شتاتاً بعد الألفة، وقرراً بعد الغنى، وذلاً بعد العز، وشدة بعد الرخاء.

والأمر ليس كذلك، فإن المؤمن ما دام بين أظهر المشركين، فدينه في غاية النقص، لا في العبادات القاصرة عليه، كالصلاة ونحوها، ولا في العبادات المتعدية، كالجهاد بالقول والفعل، وتوابع ذلك، لعدم تمكنه من ذلك، وهو بصد أن يفتن عن دينه، خصوصاً إن كان مستضعفاً.

فإذا هاجر في سبيل الله تمكن من إقامة دين الله وجهاد أعداء الله، ومراغمتهم، فإن المرأمة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاظة لأعداء الله من قول وفعل، وكذلك يحصل له سعة في رزقه، وقد وقع كما أخبر الله تعالى

وتوعدهم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

واستثنى المستضعفين حقيقة، ولهذا قالت لهم الملائكة: **﴿الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾** وهذا استفهام تقرير، أي: قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة، فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه، فإن له متسعاً وفسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله، كما قال تعالى: **﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾** . قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم: **﴿فأولئك ما أوامهم جهنم وساءت مصيراً﴾** وهذا كما تقدم، فيه ذكر بيان السبب الموجب، فقد يترتب عليه مقتضاه، مع اجتماع شروطه، وانتفاء موانعه، وقد يمنع من ذلك مانع.

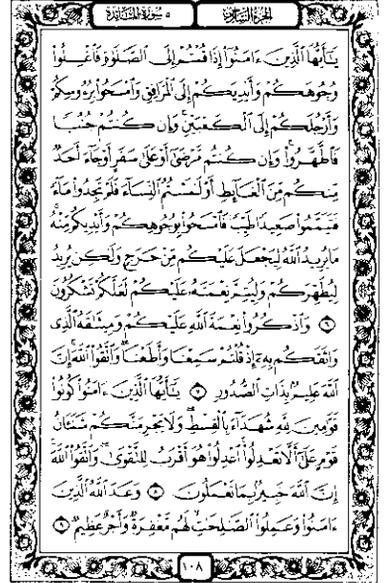
وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من الكبائر، وفي الآية دليل على أن كل من توفي فقد استكمل واستوفى ما قدر له من الرزق والأجل والعمل، وذلك مأخوذ من لفظ «التوفي» فإنه يدل على ذلك، لأنه لو بقي عليه شيء من ذلك لم يكن متوفياً.

وفيه الإيمان بالملائكة ومدحهم، لأن الله ساق ذلك الخطاب لهم على وجه التقرير والاستحسان منهم، وموافقته لمحلله.

ثم استثنى المستضعفين على الحقيقة، الذين لا قدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه **﴿ولا يبتدون سبيلاً﴾** .

فهؤلاء قال الله فيهم: **﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً﴾** و «عسى» ونحوها واجب وقوعها من الله تعالى بمقتضى كرمه وإحسانه، وفي الترجية بالشواهد لمن عمل بعض الأعمال فائدة:

وهو أنه قد لا يوفيه حق توفيته، ولا يعمل على الوجه اللائق الذي ينبغي، بل يكون مقصراً فلا يستحق ذلك الثواب. والله أعلم. وفي الآية الكريمة دليل على أن من



الخوف، يقول تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض﴾ أي: في السفر، وظاهر الآية [أنه] يقتضي الترخص^(١) في أي: سفر كان، ولو كان سفر معصية، كما هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، وخالف في ذلك الجمهور، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم، فلم يجوزوا الترخص^(٢) في سفر المعصية، تخصيصاً للآية بالمعنى والمناسبة، فإن الرخصة سهولة من الله لعباده إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا، والعاصي بسفوره، لا يناسب حاله التخفيف.

وقوله: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ أي: لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك، ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل، لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس، بل ولا ينافي الوجوب، كما تقدم ذلك في سورة البقرة، في قوله: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ إلى آخر الآية.

وإزالة الوهم في هذا الموضوع ظاهرة، لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين وجوبها على هذه الصفة التامة، ولا يزيل هذا عن نفوس أكثرهم إلا بذكر ما ينافيه.

ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران: أحدهما: ملازمة النبي ﷺ على القصر في جميع أسفاره. والثاني: أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد، والله تعالى يجب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته.

وقوله: ﴿أن تقصروا من الصلاة﴾ ولم يقل أن تقصروا الصلاة، فيه فائدتان: إحداهما: أنه لو قال أن تقصروا الصلاة، لكان القصر غير منضبط بحد من الحدود، فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة وجعلها ركعة واحدة، لأجزأ، فإتيانه بقوله: ﴿من الصلاة﴾ يدل ذلك على أن القصر محدود

بمائها الأربع، وأما إذا فُتِنَ إِلَى الصَّلَاةِ فَغَسَّوْا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنْتُمْ خُنُوفًا فَأَغْسُوا أَرْجُلَكُمْ وَأَمَّا إِذَا مَا كُنْتُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْمَرْغَبِ أَوْ لَسْتُمْ عَلَىٰ صَلَاتِكُمْ فَلَا حَرَّ وَلَا جُنَادٍ وَأَمَّا إِذَا مَا كُنْتُمْ عَابِدِينَ فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْكُعْبَيْنِ وَمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ مَن كَانَ حُرًّا وَلَا عَبْدًا لِّبُطُونٍ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَكِ كَاسْفِ السَّمَكِ فَيَصَدُّكَ عَنْ الصَّلَاةِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ عَذَابُكَ أَشَدَّ وَأَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَلِيبٌ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنْتُمْ خُنُوفًا فَأَغْسُوا أَرْجُلَكُمْ وَأَمَّا إِذَا مَا كُنْتُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْمَرْغَبِ أَوْ لَسْتُمْ عَلَىٰ صَلَاتِكُمْ فَلَا حَرَّ وَلَا جُنَادٍ وَأَمَّا إِذَا مَا كُنْتُمْ عَابِدِينَ فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْكُعْبَيْنِ وَمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ مَن كَانَ حُرًّا وَلَا عَبْدًا لِّبُطُونٍ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَكِ كَاسْفِ السَّمَكِ فَيَصَدُّكَ عَنْ الصَّلَاةِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ عَذَابُكَ أَشَدَّ وَأَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَلِيبٌ ﴿١٠٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنْتُمْ خُنُوفًا فَأَغْسُوا أَرْجُلَكُمْ وَأَمَّا إِذَا مَا كُنْتُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْمَرْغَبِ أَوْ لَسْتُمْ عَلَىٰ صَلَاتِكُمْ فَلَا حَرَّ وَلَا جُنَادٍ وَأَمَّا إِذَا مَا كُنْتُمْ عَابِدِينَ فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْكُعْبَيْنِ وَمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ مَن كَانَ حُرًّا وَلَا عَبْدًا لِّبُطُونٍ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَكِ كَاسْفِ السَّمَكِ فَيَصَدُّكَ عَنْ الصَّلَاةِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ عَذَابُكَ أَشَدَّ وَأَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَلِيبٌ ﴿١٠٣﴾

وقوله: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ أي: لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك، ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل، لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس، بل ولا ينافي الوجوب، كما تقدم ذلك في سورة البقرة، في قوله: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ إلى آخر الآية.

ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران: أحدهما: ملازمة النبي ﷺ على القصر في جميع أسفاره. والثاني: أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد، والله تعالى يجب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته.

وقوله: ﴿أن تقصروا من الصلاة﴾ ولم يقل أن تقصروا الصلاة، فيه فائدتان: إحداهما: أنه لو قال أن تقصروا الصلاة، لكان القصر غير منضبط بحد من الحدود، فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة وجعلها ركعة واحدة، لأجزأ، فإتيانه بقوله: ﴿من الصلاة﴾ يدل ذلك على أن القصر محدود

﴿رحيماً﴾ بجميع الخلق، رحمة أوجدتهم وعافتهم، ورزقتهم من المال والبنين والقوة، وغير ذلك. رحيماً بالمؤمنين، حيث وفقهم للإيمان، وعلمهم من العلم ما يحصل به الإيقان، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح، وما به يدركون غاية الأرباح، وسيرون من رحمته وكرمه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فنسأل الله أن لا يجرنا خيره بشر ما عندنا.

﴿١٠١- ١٠٢﴾ ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً﴾ وإذا كنت فيهم فأمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم وذ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾ هاتان الآيتان أصل في رخصة القصر، وصلاة

فعلى هذا يكون هذا القيد أتى به نظراً لغالب الحال التي كان النبي ﷺ وأصحابه عليها، فإن غالب أسفارهم أسفار جهاد.

وفيه فائدة أخرى، وهي بيان الحكمة والمصلحة في مشروعية رخصة القصر، فبين في هذه الآية أنهى ما يتصور من المشقة المناسبة للرخصة، وهي اجتماع السفر والخوف، ولا يستلزم ذلك أن لا يقصر مع السفر وحده، الذي هو مظنة المشقة.

وأما على الوجه الثاني، وهو أن المراد بالقصر: قصر العدد والصفة، فإن القيد على بابه، فإذا وجد السفر والخوف جاز قصر العدد، وقصر الصفة، وإذا وجد السفر وحده جاز

(٢) في ب: الترخيص.

(١) في ب: الترخيص.



صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة في ركعتهم الأولى، وحكماً في ركعتهم الأخيرة، فيستلزم ذلك انتظار الإمام إياهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا ظاهر للمتأمل.

﴿١٠٣﴾ ﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فاقموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ أي: فإذا فرغتم من صلاتكم، صلاة الخوف وغيرها، فاذكروا الله في جميع أحوالكم وهيئاتكم، ولكن خصت صلاة الخوف بذلك لغوائه. منها: أن القلب صلاحه وفلاحه وسعادته، بالإجابة إلى الله تعالى في المحبة وامتلاء القلب من ذكره والثناء عليه.

وأعظم ما يحصل به هذا المقصود الصلاة، التي حقيقتها أنها صلة بين العبد وبين ربه.

ومنها: أن فيها من حقائق الإيمان ومعارف الإيقان، ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة. ومن المعلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن والخوف فأمر بجبرها بالذكر بعدها.

ومنها: أن الخوف يوجب من قلق القلب وخوفه، ما هو مظنة لضعفه، وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو، والذكر لله والإكثار منه

لو صلوها بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين وانفاقهم، وعدم تفرق كلمتهم، ويكون ذلك أوقع هيبة في قلوب أعدائهم، وأمر تعالى بأخذ السلاح، والحذر في صلاة الخوف، وهذا وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة، فإن فيه مصلحة راجحة، وهو الجمع بين الصلاة والجهاد، والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص على الإيقاع بالمسلمين، والميل عليهم وعلى أمتعتهم ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾.

ثم إن الله عذر من له عذر، من مرض أو مطر، أن يضع سلاحه، ولكن مع أخذ الحذر فقال: ﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذرکم إن الله أعد للکافرين عذاباً مهيناً﴾.

ومن العذاب المهين ما أمر الله به حربه المؤمنين وأنصار دينه الموحدين، من قتلهم وقتالهم حيثما تقفوه، وبأخذوهم ومحصرهم، ويقعدوا لهم كل مرصد، ويحذروهم في جميع الأحوال، ولا يغفلوا عنهم، خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم.

فله أعظم حمد وثناء على ما من به على المؤمنين، وأيدهم بمعونته وتعاليمه التي لو سلكوها على وجه الكمال لم تهزم لهم راية، ولم يظهر عليهم عدو في وقت من الأوقات.

وفي قوله: ﴿فإذا سجداً فليكونوا من ورائكم﴾ يدل على أن هذه الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين. وأن الرسول ﷺ يثبت منتظراً للطائفة الأخرى قبل السلام، لأنه أولاً ذكر أن الطائفة تقوم معه، فأخبر عن مصابحتهم له. ثم أضاف الفعل بعد إليهم دون الرسول، فدل ذلك على ما ذكرناه.

وفي قوله: ﴿ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك﴾ دليل على أن الطائفة الأولى قد صلوا، وأن جميع

قصر العدد فقط، أو الخوف وحده جاز قصر الصفة.

ولذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ أي: صليت بهم صلاة تقيمها، وتتم ما يجب فيها ويلزم، فعلمهم ما ينبغي لك ولهم فعله.

ثم قسر ذلك بقوله: ﴿فلتقم طائفة منهم معك﴾ أي: وطائفة قائمة بإزاء العدو، كما يدل على ذلك ما يأتي: ﴿فإذا سجداً﴾ أي: الذين معك، أي: أكملوا صلاتهم، وعبر عن الصلاة بالسجود، ليدل على فضل السجود، وأنه ركن من أركانها، بل هو أعظم أركانها.

﴿فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا﴾ وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو ﴿فليصلوا معك﴾ دل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى منتظراً للطائفة الثانية، فإذا حضروا صلى بهم ما بقي من صلاته، ثم جلس ينتظرهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف.

فإنها صحت عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة كلها جائزة، وهذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة، وقت اشتداد الخوف من الأعداء وحذر مهاجرتهم، فإذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة، فأيجبها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أولى وأحرى.

والثاني: أن المصلين صلاة الخوف يتركون فيها كثيراً من الشروط واللوازم، ويعفى فيها عن كثير من الأفعال المبطله في غيرها، وما ذلك إلا لتأكد وجوب الجماعة، لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب، فلولا وجوب الجماعة لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها.

وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يصلوا بإمام واحد. ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء، لا يخل به

رحيماً * ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً * يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً * هاأنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً * ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً * ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً * ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً * ولولا فضل الله عليك ورحمته لهتمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً * يخبر تعالى، أنه أنزل على عبده ورسوله الكتاب بالحق، أي: محفوظاً في إنزاله من الشياطين، أن يتطرق إليه منهم باطل بل نزل بالحق، ومشملاً أيضاً على الحق فأخبره صدق، وأوامره ونواهيه عدل * وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً * وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس.

وفي الآية الأخرى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾. فيحتمل أن هذه الآية في الحكم بين الناس، في مسائل النزاع والاختلاف، وتلك في تبيين جميع الدين، وأصوله وفروعه، ويحتمل أن الآيتين كليهما، معنهما واحد، فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفي العقائد، وفي جميع مسائل الأحكام.

وقوله: ﴿بما أراك الله﴾ أي: لا جهواك، بل بما علمك الله وألهمك، كقوله تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾. وفي هذا دليل على عصمته ﷺ فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام

كانوا يعاقبون عليها، وعلى سائر الأحكام في الآخرة.

﴿١٠٤﴾ ﴿ولا تهتوا في ابتغاء القوم

إن تكونوا تاملون فإنهم ياملون كما تاملون وترجعون من الله ما لا يرجعون وكان الله عليماً حكيماً﴾ أي: لا تضعفوا ولا تكسلوا في ابتغاء عدوك من الكفار، أي: في جهادهم والمرابطة على ذلك، فإن وهن القلب مستدع لوهن البدن، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء. بل كونوا أقوىاء نشيطين في قتالهم.

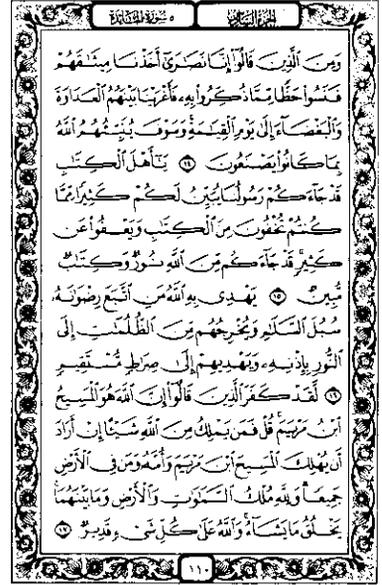
ثم ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين، فذكر شيئين:

الأول: أن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك، فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم، وأنتم وإياهم قد تساوتم فيما يوجب ذلك، لأن العادة الجارية لا يضعف إلا من توالى عليه الألام وانتصر عليه الأعداء على الدوام، لا من يبدل مرة، ويبدل عليه أخرى.

والثاني: أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فترجون الفوز بشوابه والنجاة من عقابه، بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية، وآمال رفيعة، من نصر دين الله، وإقامة شرعه، واتساع دائرة الإسلام، وهداية الضالين، وقمع أعداء الدين، فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة، وتضاعف النشاط والشجاعة التامة؛ لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوي إن ناله، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية، والفوز برضوان الله وجنته، فسبحان من فارت بين العباد، وفرق بينهم بعلمه وحكمته، ولهذا قال: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ كامل العلم، كامل الحكمة.

﴿١٠٥﴾ ﴿إنا أنزلنا إليك

الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً * واستغفر الله إن الله كان غفوراً



من أعظم مقويات القلب.

ومنها: أن الذكر لله تعالى مع الصبر والشبات سبب للفلاح والظفر بالأعداء، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾. فأمر بالإكثار منه في هذه الحال إلى غير ذلك من الحكم.

وقوله: ﴿فإذا اطمانتم فاقموا

الصلاة﴾ أي: إذا امنتم من الخوف، واطمأنت قلوبكم وأبدانكم، فأتموا صلاتكم على الوجه الأكمل، ظاهراً وباطناً، بأركانها وشروطها، وخشوعها، وسائر مكملاتها.

﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً

موقوتاً﴾ أي: مفروضاً في وقته، فدل ذلك على فرضيتها، وأن لها وقتاً لا تصح إلا به، وهو هذه الأوقات التي قد تقررت عند المسلمين، صغيرهم وكبيرهم، عالمهم وجاهلهم، وأخذوا ذلك عن نبيهم محمد ﷺ بقوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

ودل قوله: ﴿على المؤمنين﴾ على أن الصلاة ميزان الإيمان، وعلى حسب إيمان العبد تكون صلاته، وتتم وتكمل، ويدل ذلك على أن الكفار وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة - أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة، ولا يؤمرون بها، بل ولا تصح منهم ما داموا على كفرهم، وإن

ها أنت تركت أمره كسلاً وتفريطاً، فما النفع الذي انتفعت به؟ وماذا فاتك من ثواب الآخرة؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحمران والخيبة والخسران؟

وكذلك إذا دعت نفسه إلى ما تشتهي من الشهوات المحرمة، قال لها: هيك فعلت ما اشتييت، فإن لذته تنقضي، ويعقبها من الهموم والغموم والحسرات، وفوات الثواب وحصول العقاب - ما بعضه يكفي العاقل في الإحجام عنها.

وهذا من أعظم ما ينفع العبد تدبره، وهو خاصة العقل الحقيقي. بخلاف الذي^(٤) يدعي العقل، وليس كذلك، فإنه بجهله وظلمه يؤثر اللذة الحاضرة، والراحة الراهنة، ولو ترتب عليها ما ترتب. والله المستعان.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي: مَنْ تجرأ على المعاصي واقتحم على الإثم، ثم استغفر الله استغفاراً تاماً، يستلزم الإقرار بالذنب والندم عليه، والإقلاع، والعزم على أن لا يعود. فهذا قد وعده مَنْ لا يخلف الميعاد، بالمغفرة والرحمة.

فيفغر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة، ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلاً عن توفيقه، لأنه قد غفره وإذا غفره، غفر ما يترتب عليه.

واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي، الصغيرة والكبيرة، وسمي «سوءاً» لكونه يسوء عامله بعقوبته، ولكونه في نفسه سيئاً غير حسن.

وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه. ولكن

مخافة الله، فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم.

وهو معهم بالعلم في جميع أحوالهم، خصوصاً في حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول، من تبرئة الجاني، ورمي البريء بالجناية، والسعي في ذلك للرسول ﷺ، ليفعل ما يتوه.

فقد جمعوا بين عدة جنائيات، ولم يراقبوا رب الأرض والسموات، المطلع على سرائرهم وضمائرهم، ولهذا تورعدهم تعالى بقوله: ﴿وكان الله بما يعملون محيطاً﴾ أي: قد أحاط بذلك علماً، ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة، بل استأنى بهم، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار على ذنبهم، الموجب للعقوبة البليغة.

﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً﴾ أي: هيكم جادلتم عنهم في هذه الحياة الدنيا، ودفع عنهم جدالكم بعض ما تحذرون^(٥) من العار والفضيحة عند الخلق، فماذا يغني عنهم وينفعهم؟ ومَنْ يجادل الله عنهم يوم القيامة حين تتوجه عليهم الحجة، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون؟ ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾.

فمَنْ يجادل عنهم، مَنْ يعلم السر وأخفى، ومَنْ أقام عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار؟ وفي هذه الآية إرشاد^(٦) إلى المقابلة بين ما يتوهم من مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله، أو فعل مناهيه، وبين ما يفوت من ثواب الآخرة، أو يحصل من عقوباتها.

فيقول مَنْ أمرته نفسه بترك أمر الله

وغيرها، وأنه يشترط في الحاكم^(٧) العلم والعدل، لقوله: ﴿بما أراك الله﴾ ولم يقل: بما رأيت. ورتب أيضاً الحكم بين الناس على معرفة الكتاب، ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط، نهاء عن الجور والظلم الذي هو ضد العدل، فقال: ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ أي: لا تخاصم عن مَنْ عرفت خيانتها، من مدع ما ليس له، أو منكر حقاً عليه، سواء علم ذلك أو ظنه. ففي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية.

ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول في نيابة الخصومة لمن لم يعرف منه ظلم.

﴿واستغفر الله﴾ مما صدر منك، إن صدر.

﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي: يغفر الذنب العظيم لمن استغفره وتاب إليه وأتاب، ويوفقه للعمل الصالح بعد ذلك، الموجب لثوابه وزوال عقابه.

﴿ولا تجادل عن الذين يخاتنون أنفسهم﴾. «الاختيان» و«الخيانة» بمعنى الخيانة والظلم والإثم، وهذا يشمل النهي عن المجادلة، عن مَنْ أذنب وتوجه عليه عقوبة، من حد أو تعزير، فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة، أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية. ﴿إن الله لا يحب مَنْ كان خواناً أثيماً﴾ أي: كثير الخيانة والإثم، وإذا انتفى الحب ثبت ضده، وهو البغض، وهذا كالتعليل، للنهي المتقدم.

ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول﴾ وهذا من ضعف الإيمان، ونقصان اليقين، أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من

(١) في أ: الحكم.

(٢) في ب: ما يحذرون.

(٣) في ب: الإرشاد.

(٤) في ب: من.

تذكيراً وتبييناً لتلك الواقعة، وتحذيراً
لرسول ﷺ من المخاصمة عن
الخانثين، فإن المخاصمة عن المبطل من
الضلال، فإن الضلال نوعان:

ضلال في العلم، وهو الجهل
بالحق، وضلال في العمل، وهو
العمل بغير ما يجب. فحفظ الله رسوله
عن هذا النوع من الضلال [كما حفظه
عن الضلال في الأعمال^(١)].

وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود على
أنفسهم، كحالة كل مكر، فقال:
«وما يضلون إلا أنفسهم» لكون ذلك
المكر، وذلك التحيل، لم يحصل لهم فيه
مقصودهم، ولم يحصل لهم^(٢) إلا
الخبية والحرام والإثم والخسران.
وهذه^(٣) نعمة كبيرة على رسوله ﷺ،
يتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق
لفعل ما يجب، والعصمة له عن كل
محرم.

ثم ذكر نعمته عليه بالعلم فقال:
«وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة»
أي: أنزل عليك هذا القرآن العظيم،
والذكر الحكيم، الذي فيه تبيان كل
شيء، وعلم الأولين والآخرين.

والحكمة: إما السنة التي قد قال
فيها بعض السلف: إن السنة تنزل عليه
كما ينزل القرآن.

وإما معرفة أسرار الشريعة الزائدة
على معرفة أحكامها، وتنزيل الأشياء
منزلها، وترتيب كل شيء بحسبه.

«وعلمك ما لم تكن تعلم» وهذا
يشمل جميع ما علمه الله تعالى.
فإنه ﷺ كما وصفه الله قبل النبوة
بقوله: **«ما كنت تدري ما الكتاب ولا
الإيمان»** **«ووجدك ضالاً فهدى»**.

ثم لم ينزل يوحي الله إليه ويعلمه
ويكمله، حتى ارتقى مقاماً من العلم
يتعدى وصوله على الأولين والآخرين،

له ويوفقه للتوبة. عند اقتران أحدهما بالآخر، قد يفسر
كل واحد منهما بما يناسبه، فيفسر
عمل السوء هنا بالظلم الذي يسوء
الناس، وهو ظلمهم في دماءهم
وأموالهم وأعراضهم.

ثم قال: **«ومن يكسب خطيئة»**
أي: ذنباً كبيراً **«أو إثماً»** ما دون
ذلك. **«ثم يرم به»** أن يتهم بذنبه
«بريثاً» من ذلك الذنب، وإن كان
مذبذباً. **«فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً»**
أي: فقد حمل فوق ظهره بهتاناً للبريء
وإثماً ظاهراً بئناً، وهذا يدل على أن
ذلك من كبائر الذنوب وموبقاتها، فإنه
قد جمع عدة مفاصد: كسب الخطيئة
والإثم، ثم رمي من لم يفعلها بفعلها،
ثم الكذب الشنيع، بتبرئة نفسه واتهام
البريء، ثم ما يترتب على ذلك، من
العقوبة الدنيوية، تندفع عن وجبت
عليه، وتقام على من لا يستحقها.

ثم ما يترتب على ذلك أيضاً من
كلام الناس في البريء، إلى غير ذلك
من المفاصد التي تسأل الله العافية منها،
ومن كل شر.

ثم ذكر منته على رسوله بحفظه
وعصمته ممن أراد أن يضلّه فقال:
**«ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت
طائفة منهم أن يضلوك»**. وذلك أن
هذه الآيات الكريمات قد ذكر
المفسرون، أن سبب نزولها: أن أهل
بيت سرقوا في المدينة، فلما اطلع على
سرقتهم خافوا الفضيحة، وأخذوا
سرقتهم فرموا ببيت من هو بريء من
ذلك.

واستعان السارق بقومه أن يأتوا
رسول الله ﷺ، ويطلبوا منه أن يبرئ
صاحبهم على رؤوس الناس، وقالوا:
إنه لم يسرق، وإنما الذي سرق من
وجدت السرقة ببيته، وهو البريء.
فهم رسول الله ﷺ أن يبرئ
صاحبهم، فأنزل الله هذه الآيات

ويفسر ظلم النفس بالظلم
والمعاصي التي بين الله وبين عبده،
وسمي ظلم النفس «ظلماً» لأن نفس
العبد ليست ملكاً له، يتصرف فيها بما
يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى، قد
جعلها أمانة عند العبد، وأمره أن
يقيمها على طريق العدل، بإلزامها
للصراط المستقيم، علماً وعملاً،
فيسعى في تعليمها ما أمر به، ويسعى
في العمل بما يجب، فسعيه في غير هذا
الطريق ظلم لنفسه وخيانة، وعدول بها
عن العدل، الذي ضده الجور والظلم.

ثم قال: **«ومن يكسب إثماً فإنما
يكسبه على نفسه»** وهذا يشمل كل ما
يؤثم من صغير وكبير، فمن كسب
سيئة فإن عقوبتها الدنيوية والأخرية
على نفسه، لا تتعداها إلى غيرها، كما
قال تعالى: **«ولا تزر وازرة وزر
أخرى»** لكن إذا ظهرت السيئات فلم
تنكر، عمت عقوبتها، وشمل إثمها،
فلا تخرج أيضاً عن حكم هذه الآية
الكريمة، لأن من ترك الإنكار الواجب
فقد كسب سيئة.

وفي هذا بيان عدل الله وحكمته،
أنه لا يعاقب أحداً بذنب أحد، ولا
يعاقب أحداً أكثر من العقوبة الناشئة
عن ذنبه، ولهذا قال: **«وكان الله
علماً حكيماً»** أي: له العلم الكامل،
والحكمة التامة.

ومن علمه وحكمته أنه يعلم الذنب
وما صدر منه، والسبب الداعي لفعله،
والعقوبة المترتبة على فعله، ويعلم حالة
الذنب، أنه إن صدر منه الذنب، بغلبة
دواعي نفسه الأتمة بالسوء، مع إنابته
إلى ربه في كثير من أوقاته، أنه سيغفر

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في النسختين: له، وقد غيرتها للتوافق مع ما سبق من الضمائر.

(٣) في النسختين: وهذا.

فكان أعلم الخلق على الإطلاق، وأجمعهم لصفات الكمال، وأكملهم فيها، ولهذا قال: ﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ فضله على الرسول محمد ﷺ أعظم من فضله على كل مخلوق^(١).

وأجانب الفضل الذي قد فضله الله به، لا يمكن استقصاؤها^(٢) ولا تيسر إحصاؤها^(٣).

﴿١١٤﴾ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ أي: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون، وإذا لم يكن فيه خير، فيما لا فائدة فيه كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة، كالكلام المحرم بجميع أنواعه.

ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إلا من أمر بصدقة﴾ من مال أو علم، أو أي: نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة، كالتسبيح والتحميد، ونحوه، كما قال النبي ﷺ: ﴿إن بكل تسيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليل صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحلكم صدقة﴾ الحديث.

﴿أو معروف﴾ وهو الإحسان والطاعة، وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه، وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهاي عن المنكر دخل فيه النهي عن المنكر، وذلك لأن ترك النهيات من المعروف، وأيضاً لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر.

وأما عند الاقتران، فيفسر المعروف بفعل المأمور، والمنكر بترك المنهي.

﴿أو إصلاح بين الناس﴾ والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتغاضب، يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره،

فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في السماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان، كما قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾. وقال تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿والصلح خير﴾ والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله.

كما أن الساعي في الإفساد لا يصلح الله عمله، ولا يتم له مقصوده كما قال تعالى: ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾. فهذه الأشياء حشماً فعلت فهي خير، كما دل على ذلك الاستثناء.

ولكن كمال الأجر وقامه بحسب النية والإخلاص، ولهذا قال: ﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ فهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى، ويخلص العمل لله في كل وقت، وفي كل جزء من أجزاء الخير، ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص، فيكون من المخلصين، وليتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا، لأن النية حصلت، واقترون بها ما يمكن من العمل.

﴿١١٥ - ١١٦﴾ ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ إن الله لا يفر أن يشرك به ويفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ أي: ومن يخالف الرسول ﷺ ويعانده فيما جاء به ﴿من بعد ما تبين له الهدى﴾ بالدلائل القرآنية



والبراهين النبوية.

﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم ﴿نوله ما تولى﴾ أي: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذه فلا نوقفه للخير، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه، فجزاؤه من الله عدلاً أن يبقيه في ضلاله حائراً، ويزداد ضلالاً إلى ضلاله.

كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾. وبدل مفهومها، على أن من لم يشاقق الرسول، ويتبع غير سبيل المؤمنين، بأن كان قصده وجه الله، واتباع رسوله، ولزوم جماعة المسلمين، ثم صدر منه من الذنوب أو الهمم بها، ما هو من مقتضيات النفوس، وغلبات الطباع، فإن الله لا يوليه نفسه وشيطانه، بل يتداركه بلطفه، ويمن عليه بحفظه، ويعصمه من السوء، كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ أي: بسبب إخلاصه صرفنا عنه السوء، وكذلك كل

(١) في ب: الخلق.

(٢) في النسخين: استقصاؤه، وقد عدلت في ب، ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) في النسخين: إحصاؤه، وقد عدلت في ب، ولعل الصواب ما أثبت.

والرسول ﴿ يفهم منها أن ما لم يتنازعاوا فيه، بل اتفقوا عليه، أنهم غير مأمورين برده إلى الكتاب والسنة، وذلك لا يكون إلا موافقاً للكتاب والسنة، فلا يكون مخالفاً.﴾

فهذه الأدلة ونحوها تفيد القطع، أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، ولهذا بين الله قبح ضلال المشركين بقوله:

﴿ ١١٧ - ١٢١ ﴾ ﴿ إن يدعون من دونه إلا إنثاء وإن يدعون إلا شيطانا مريداً * لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً * يعدهم ويمينهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * أولئك مأواهم جهنم لا يجدون عنها محيصاً.﴾

أي: ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا إنثاءً، أي: أوثاناً، وأصناماً، مسميات بأسماء الإناث، كـ «العزى» و «مناة» ونحوهما، ومن المعلوم أن الاسم دال على المسمى. فإذا كانت أسماؤها أسماء مؤنثة ناقصة، دل ذلك على نقص المسميات بتلك الأسماء، وفقدتها لصفات الكمال، كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه، أنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تدفع عن عابديها، بل ولا عن نفسها؛ نفعاً ولا ضرراً، ولا تنصر أنفسها عن يريدها بسوء، وليس لها أسمع ولا أبصار ولا أفتدة، فكيف يُعبد من هذا وصفه، ويُترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنَى والصفات العليا والحمد والكمال، والمجد، والجلال، والعز، والجمال، والرحمة، والبر، والإحسان، والافراد بالخلق والتدبير، والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير؟! هل هذا إلا من أقبح القبيح، الدال على نقص صاحبه، وبلوغه من الخسة والدناءة أدنى ما يتصوره متصور، أو يصفه واصف؟!

الغنى، والفقر من جميع الوجوه. وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي، فهو تحت المشيئة، إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه، وعاقب بعدله وحكمته، وقد استدلت بهذه الآية الكريمة، على أن إجماع هذه الأمة حجة، وأنها معصومة من الخطأ.

ووجه ذلك: أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخذلان والنار، و«سبيل المؤمنين» مفرد مضاف، يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال.

فإذا اتفقوا على إيجاب شيء، أو استحبابه، أو تحريمه، أو كراهته، أو إباحته - فهذا سبيلهم، فمن خالفهم في شيء من ذلك بعد انعقاد إجماعهم عليه، فقد اتبع غير سبيلهم. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر.﴾

ووجه الدلالة منها: أن الله تعالى أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة لا يأمرون إلا بالمعروف، فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه، فهو مما أمروا به، فيتعين بنص الآية أن يكون معروفاً، ولا شيء بعد المعروف غير المنكر، وكذلك إذا اتفقوا على النهي عن شيء، فهو مما نهوا عنه، فلا يكون إلا منكراً، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس.﴾ فأخبر تعالى أن هذه الأمة جعلها الله وسطاً، أي: عدلاً خياراً، ليكونوا شهداء على الناس، أي: في كل شيء، فإذا شهدوا على حكم بأن الله أمر به أو نهى عنه أو أباحه، فإن شهادتهم معصومة، لكونهم عاقلين بما شهدوا به، عادلين في شهادتهم، فلو كان الأمر بخلاف ذلك لم يكونوا عادلين في شهادتهم، ولا عاقلين بها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ فيان تنازعتن في شيء، فردوه إلى الله



مخلص، كما يدل عليه عموم التعليل. وقوله: ﴿ وتصله جهنم ﴾ أي: نعذبه فيها عذاباً عظيماً. ﴿ ومساءت مصيراً ﴾ أي: مرجعاً له ومآلاً.

وهذا الوعيد المرتب^(١) على الشقاق، ومخالفة المؤمنين، مراتب لا يحصيها إلا الله، بحسب حالة الذنب صغراً وكبراً فمنه ما يخلد في النار ويوجب جميع الخذلان. ومنه ما هو دون ذلك، فلعل الآية الثانية كالتفصيل لهذا المطلق.

وهو: أن الشرك لا يغفره الله تعالى، لتضمنه القدح في رب العالمين وفي وحدانيته، وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، بمن هو مالك النفع والضرر، الذي ما من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبارات.

فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال، عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق، الذي ليس له من صفات الكمال شيء، ولا له من صفات الغنى شيء، بل ليس له إلا العدم. عدم الوجود، وعدم الكمال، وعدم

(١) في ب: المترتب.

هؤلاء المفتونين، وهذا الذي جرى عليهم من توليهم عن ربهم وفاطرهم^(٣)، وتوليهم لعدوهم المرید لهم الشر من كل وجه، فخسروا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خَسِرَانًا مُبِينًا﴾ وأي: خسار أبين وأعظم ممن خسر دينه ودنياه، وأوقته معاصيه وخطاياها؟! فحصل له الشقاء الأبدى، وفاته النعيم السرمدى.

كما أن مَنْ تولى مولاة وأثر رضاه، ربح كل الربح، وأفلح كل الفلاح، وفاز بسعادة الدارين، وأصبح قدير العين، فلا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، اللهم تولنا فيمن توليت، وعافنا فيمن عافيت.

ثم قال: ﴿يَعْدَهُمْ وَيُمْنِيهِمْ﴾ أي: يعد الشيطان من يسعى في اضلالهم. والوعد يشمل حتى الوعيد كما قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾. فإنه يعدهم إذا أنفقوا في سبيل الله افتقروا، ويخوفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ﴾ الآية. ويخوفهم عند إيثار مرضاة الله بكل ما يمكن وما لا يمكن، مما يدخله في عقولهم، حتى يكسبوا عن فعل الخير، وكذلك يمنيهم الأمانى الباطلة التي هي عند التحقيق كالسراب الذي لا حقيقة له، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا، أُولَئِكَ مَا أُوَاهِمُ جَهَنَّمَ﴾ أي: من انقاد للشيطان، وأعرض عن ربه، وصار من أتباع إبليس وحزبه، مستقرهم النار. ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: مخلصاً ولا ملجأ، بل هم خالدون فيها أبد الآباد.

﴿١٢٢﴾ ولما بين مآل الأشقياء أولياء الشيطان، ذكر مآل السعداء أوليائه فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ

هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ الآية.

وقال تعالى عن المنافقين إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟﴾ قالوا: بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغرکم بالله الغرور﴾.

وقوله: ﴿وَلَا مَرْهَمَ فَلْيَبْتَئِنَّا أَذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ أي: بتقطيع أذنانها، وذلك كالبحيرة، والسائبة والوصيلة، والحام، فنبه ببعض ذلك على جميعه.

وهذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة، ما هو من أكبر الضلال. ﴿وَلَا مَرْهَمَ فَلْيَبْتَئِنَّا

خَلْقَ اللَّهِ﴾ وهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم، والوشر، والنمص، والتفلج للحسن، ونحو ذلك، مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن.

وذلك يتضمن التسخط من خلقته، والقدح في حكمته، واعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتدييره، ويتناول أيضاً تغيير الخلقة الباطنة. فإن الله تعالى خلق عباده حنفاء، مفطورين على قبول الحق وإيثاره، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهن عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك، والكفر والفسوق والعصيان.

فإن كل مولود يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، ونحو ذلك مما يغيرون به ما فطر الله عليه العباد، من توحيده، وحبه ومعرفته، فافتروا الشياطين في هذا الموضع افتراس السبع والذئب للغنم المنفردة.

لولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين، لجرى عليهم ما جرى على

ومع ذلك^(١) فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة. وبالْحَقِيقَةُ مَا عَبَدُوا غَيْرَ الشَّيْطَانِ، الَّذِي هُوَ عَدُوُّهُمْ، الَّذِي يَرِيدُ إِهْلَاكَهُمْ، وَيَسْعَى فِي ذَلِكَ بِكُلِّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، الَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ الْبَعْدِ مِنَ اللَّهِ، لَعْنَةُ اللَّهِ وَأَبْعَدُهُ عَنْ رَحْمَتِهِ، فَكَمَا أَبْعَدَهُ اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، يَسْعَى فِي إِبْعَادِ الْعِبَادِ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ. ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ولهذا أخبر الله عن سعيه في إغواء العباد، وتزيين الشر لهم والفساد، وأنه قال لربه مقسماً: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي: مقدراً. علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه على مَنْ تولاها، وأثر طاعته على طاعة مولاها.

وأقسم في موضع آخر لغيريونيهم ﴿لَأَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾. فهذا الذي ظنه الخبيث وجزم به، أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذا النصيب المفروض الذي أقسم الله إنه يتخذهم^(٢)، ذكر ما يريد بهم، وما يقصده لهم بقوله: ﴿وَلَا ضَلَّ لَهُمْ﴾ أي: عن الصراط المستقيم، ضلالاً في العلم، وضلالاً في العمل.

﴿وَلَا مَنِيهِمْ﴾ أي: مع الإضلال، لأمنيهم أن ينالوا ما ناله المهتدون. وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد إضلالهم حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال. وهذا زيادة شر إلى شرهم، حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة، وحسبوا أنها موجبة للجنة، واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم، فإنهم كما حكى الله عنهم، ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وكذلك زيننا لكل أمة عملهم ﴿قُلْ

(١) في ب: ومع هذا.

(٢) في النسختين: إنهم يتخذهم.

(٣) كذا في ب وفي أ: وفاطرهم.

دون توبة جوزي بالخلود في العذاب الأليم .

ومن كان عمله صالحاً، وهو مستقيم في غالب أحواله، وإنما يصدر منه بعض الأحيان بعض الذنوب الصغار، فما يصيبه من الهم والغم، والأذى، و [بعض] الآلام، في بدنه، أو قلبه، أو حبيبه، أو ماله، ونحو ذلك - فإنها مكفرات للذنوب، وهي مما يميز به على عمله، قبضها الله لطفاً بعباده، وبين هذين الحالين مراتب كثيرة .

وهذا الجزاء على عمل السوء العام، مخصوص في غير التائبين، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، كما دلت على ذلك النصوص .

وقوله: ﴿ولا يجده من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ لإزالة بعض ما لعله يتوهم أن من استحق المجازاة على عمله، قد يكون له ولي، أو ناصر، أو شافع، يدفع عنه ما استحقه، فأخبر تعالى بانتفاء ذلك، فليس له ولي يحصل له المطلوب، ولا نصير يدفع عنه المرهوب، إلا ربه ومليكه .

﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ دخل في ذلك سائر الأعمال القلبية والبدنية، ودخل أيضاً كل عامل من إنس أو جن، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى . ولهذا قال: ﴿من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة، ولا تقبل، ولا يترتب عليها الثواب، ولا يندفع بها العقاب، إلا بالإيمان .

فالأعمال بدون الإيمان، كأغصان شجرة قطع أصلها، وكبناء بني على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبني عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أطلق، فإنه مقيد به .

﴿فأولئك﴾ أي: الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ﴿يدخلون

وحديثه في الصدق أعلى ما يكون، ولهذا لما كان كلامه صدقاً، وخبره حقاً، كان ما يدل عليه مطابقة، وتضمناً، وملازمة، كل ذلك مراد من كلامه، وكذلك كلام رسوله ﷺ لكونه لا يخبر إلا بأمره ولا ينطق إلا عن وحيه .

﴿١٢٣ - ١٢٤﴾ ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجده من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾ أي: ﴿ليس﴾ الأمر والنجاة والتزكية ﴿بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب﴾. والأمانى: أحاديث النفس المجردة عن العمل، المقترن بها دعوى مجردة، لو عورضت بمثلها لكانت من جنسها . وهذا عام في كل أمر، فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية؟!

فإن أمانى أهل الكتاب قد أخبر الله بها، أنهم قالوا: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيتهم﴾ وغيرهم ممن ليس ينتسب لكتاب ولا رسول من باب أولى وأحرى .

وكذلك أدخل الله في ذلك من ينتسب إلى الإسلام لكمال العدل والإنصاف، فإن مجرد الانتساب إلى أي: دين كان، لا يفيد شيئاً إن لم يأت الإنسان ببرهان على صحة دعواه .

فالأعمال تصدق الدعوى أو تكذبها، ولهذا قال تعالى: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ وهذا شامل لجميع العاملين، لأن السوء شامل، لأي: ذنب كان^(١)، من صفائر الذنوب وكبائرها، وشامل أيضاً لكل جزء، قليل أو كثير، دنوي أو أخروي .

والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فمن كان عمله كله سوءاً، وذلك لا يكون إلا كافراً . فإذا مات من

قبلاً^(٢) أي: ﴿أمسوا﴾ بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، على الوجه الذي أمروا به، علماً وتصديقاً وإقراراً . ﴿وعملوا الصالحات﴾ الناشئة عن الإيمان .

وهذا يشمل سائر المأمورات، من واجب ومستحب، الذي على القلب، والذي على اللسان، والذي على بقية الجوارح . كل له من الثواب المرتب على ذلك بحسب حاله ومقامه، وتكميله للإيمان والعمل الصالح .

ويقوته ما رتب على ذلك بحسب ما أدخل به من الإيمان والعمل، وذلك بحسب ما علم من حكمة الله ورحمته، وكذلك وعده الصادق الذي يعرف من تتبع كتاب الله وسنة رسوله .

ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله: ﴿سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من أنواع المأكول والمشرب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور والغرف المزخرفة، والأشجار المتدلية، والفواكه المستغرية، والأصوات الشجية، والتعم السابعة، وتزاور الإخوان، وتذكرهم ما كان منهم في رياض الجنان وأعلى من ذلك كله وأجل رضوان الله عليهم، وتمتع الأرواح بقربه، والعيون برؤيته، والأسماع بخطابه، الذي ينسيهم كل نعيم وسرور، ولولا الثبات من الله لهم لطاروا وماتوا من الفرح والخبور، فله ما أحل ذلك النعيم، وما أعلى ما أنالهم الرب الكريم، وماذا حصل لهم من كل خير وبهجة لا يصفه الوصفون، وتمام ذلك وكماله الخلود الدائم في تلك المنازل العاليات، ولهذا قال: ﴿خالدين فيها أبداً﴾ وعد الله حقاً، ومن أصدق من الله قيلاً .

فصدق الله العظيم الذي بلغ قوله

(١) في ب: أورد الآية كاملة، بينما في أ، انقصر على أولها .

(٢) كذا في ب، وفي أ: لأي سوء كان .

(٣) زيادة من هامش: ب .

وغيره، وأن لا تستولوا على أموالهم على وجه الظلم والاستبداد. ﴿وَأَنْ تَقْرَمُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل التام، وهذا يشمل القيام عليهم بالزامهم أمر الله وما أوجبه على عباده، فيكون الأولياء مكلفين بذلك، يلزمونهم بما أوجبه الله.

ويشمل القيام عليهم في مصالحهم الدنيوية، بتنمية أموالهم، وطلب الأخط لهم فيها، وأن لا يقربوها إلا بالتي هي أحسن، وكذلك لا يجابون فيهم صديقاً ولا غيره، في تزوج وغيره، على وجه الهضم لحقوقهم. وهذا من رحمته تعالى بعباده، حيث حث غاية الحث على القيام بمصالح مَنْ لا يقوم بمصلحة نفسه، لضعفه وقد أتيه.

ثم حث على الإحسان عموماً، فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ لليتامى وغيرهم، سواء كان الخير متعدياً أو لازماً، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً﴾ أي: قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير، قلة وكثرة، حسناً وضده، فيجازي كلا بحسب عمله.

﴿١٢٨﴾ ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: إذا خافت المرأة نشوز زوجها، أي: ترفعه عنها، وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها، فالأحسن في هذه الحالة أن يصلحا بينهما صلحاً صلحاً، بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها، على وجه تبقى مع زوجها، إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة، أو الكسوة، أو المسكن، أو القسم، بأن تسقط حقها منه، أو تهب يومها وليتها لزوجها أو لضرتها.

فإذا اتفقا على هذه الحالة، فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿وَالصُّلْحُ

﴿١٢٧﴾ ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ وَأَنْ تَقْرَمُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً﴾ الاستفتاء: طلب السائل من المسؤول بيان الحكم الشرعي في ذلك المسؤول عنه. فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺ، في حكم النساء المتعلق بهم فتوى الله هذه الفتوى بنفسه، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع شؤون النساء، من القيام بحقوقهن وترك ظلمهن عموماً وخصوصاً.

وهذا أمر عام يشمل جميع ما شرع الله أمراً ونهياً، في حق النساء الزوجات وغيرهن، الصغار والكبار، ثم خص - بعد التعميم - الوصية بالضعاف من اليتامى والولدان، اهتماماً بهم، وزجراً عن التفريط في حقوقهم، فقال: ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ أي: ويفتيكم أيضاً بما يتلى عليكم في الكتاب في شأن اليتامى من النساء. ﴿اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت، فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل، بخسها حقها وظلمها، إما بأكل مالها الذي لها أو بعضه، أو منعهما من التزوج لينتفع بمالها، خوفاً من استخراجها من يده إن زوجها، أو يأخذ من مهرها الذي تتزوج به بشرط أو غيره، هذا إذا كان راغباً عنها، أو يرغب فيها وهي ذات جمال ومال، ولا يقسط في مهرها، بل يعطيها دون ما تستحق، فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص، ولهذا قال: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ أي: ترغبون عن نكاحهن، أو في نكاحهن كما ذكرنا تمثيلاً.

﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ﴾ أي: ويفتيكم في المستضعفين من الولدان الصغار، أن تعطوهم حقهم من الميراث

الجنة ﴿المشتملة على ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين﴾ ولا يظلمون فقيراً ﴿أي: لا قليلاً ولا كثيراً بما عملوه من الخير، بل يجدونه كاملاً موفراً، مضاعفاً أضعافاً كثيرة.

﴿١٢٥﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي: لا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلام الوجه لله، الدال على استسلام القلب وتوجهه وإنابته وإخلاصه، وتوجهه الوجه وسائر الأعضاء لله.

﴿وهو﴾ مع هذا الإخلاص والاستسلام ﴿محسن﴾ أي: متبع لشريعة الله التي أرسل بها رسله، وأنزل كتبه، وجعلها طريقاً لخواص خلقه وأتباعهم.

﴿واتبع ملة إبراهيم﴾ أي: دينه وشرعه ﴿حنيفاً﴾ أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، وعن التوجه للخلق إلى الإقبال على الخالق، ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ والخللة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليين محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبة من الله، فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلاً، لأنه وفق بما أمر به وقام بما ابتلي به، فجعله الله إماماً للناس، واتخذ خليلاً، ونوه بذكره في العالمين.

﴿١٢٦﴾ ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَاطِلًا﴾ وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء، فأخبر أن له ﴿ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي: الجميع ملكه وعبده، فهم المملوكون، وهو المالك المتفرد بتدبيرهم، وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات، وسمعته بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الوجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسماوات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء.

تعذر الاتفاق فإنه لا بأس بالفراق، فقال: ﴿وإن ينفرقا﴾ أي: بطلاق، أو فسوخ، أو خلع، أو غير ذلك ﴿يعني الله كلا﴾ من الزوجين ﴿من سعت﴾ أي: من فضله وإحسانه الواسع الشامل. فيعني الزوج بزوجة خير له منها، ويعنيها من فضله وإن انقطع نصيبها من زوجها، فإن رزقها على المتكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً منه، ﴿وكان الله واسعاً﴾ أي: كثير الفضل، واسع الرحمة، وصلت رحمته وإحسانه إلى حيث وصل إليه علمه.

ولكنه مع ذلك ﴿حكيماً﴾ أي: يعطي بحكمة، ويمنع لحكمة. فإذا اقتضت حكمته منع بعض عباده من إحسانه، بسبب من العبد لا يستحق معه الإحسان حرمة عدلاً وحكمة.

﴿١٣١ - ١٣٢﴾ ﴿والله ما في السموات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾ ﴿والله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله كيلاً﴾ يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع، المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف قدراً وشرعاً، فتصرفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين أهل الكتب السابقة واللاحقة بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بأليم العذاب. ولهذا قال: ﴿وإن تكفروا﴾ بأن تركوا تقوى الله، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فإنكم لا تضرون الله بذلك إلا أنفسكم، ولا تضرون الله شيئاً، ولا تنقصون ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم، وأكثر مطيعون له خاضعون لأمره. ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾ له الجود الكامل والإحسان

المأمور، وتتقوا بترك المحظور ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ قد أحاط به علماً وخبراً، بظاهره وباطنه، فيحفظه لكم، ويميزكم عليه أتم الجزاء.

﴿١٢٩﴾ ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ يخبر تعالى: أن الأزواج لا يستطيعون، وليس في قدرهم العدل التام بين النساء، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك. وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا الله عما لا يستطيع، ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ أي: لا تميلوا ميلاً كثيراً بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل.

فالنفقة والكسوة والقسم ونحوها، عليكم أن تعدلوا بينهن فيها، بخلاف الحب، والنوطة ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها، صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها.

﴿وإن تصلحوا﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم، بإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس، احتساباً وقياماً بحق الزوجة، وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضاً بين الناس، فيما تنازعوا فيه، وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقاً كما تقدم.

﴿وتتقوا﴾ الله بفعل المأمور وترك المحظور، والصبر على المقدور. ﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ يغفر ما صدر منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتوهن.

﴿١٣٠﴾ ﴿وإن ينفرقا يعني الله كلاً من سعت﴾ وكان الله واسعاً حكيماً ﴿إذا هذه الحالة الثالثة بين الزوجين، إذا

خير﴾ ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى أن الصلح بين من بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء، أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه، لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة، والاتصاف بصفة السماح.

وهو جائز في جميع الأشياء، إلا إذا أحل حراماً أو حرم حلالاً، فإنه لا يكون صلحاً، وإنما يكون جوراً. واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل، إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضى لذلك، ونبه على أنه خير، والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه، فإن كان مع ذلك - قد أمر الله به وحث عليه ازداد المؤمن طلباً له ورغبة فيه.

وذكر المانع بقوله: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ أي: جبلت النفوس على الشح، وهو: عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً، أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده، وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليكم، والافتناع ببعض الحق الذي لك.

فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن، سهل حينئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب. بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه، فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر.

ثم قال: ﴿وإن تحسنوا وتتقوا﴾ أي: تحسنوا في عبادة الخالق، بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وتحسنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان، من نفع بمال، أو علم، أو جسد، أو غير ذلك. ﴿وتتقوا﴾ الله بفعل جميع المأمورات، وترك جميع المحظور. أو تحسنوا بفعل

يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴿١٣٦﴾ . وأي ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق الهدى المستقيم، وسلك الطريق الموصلة له إلى العذاب الأليم!!

واعلم أن الكفر بشيء من هذه المذكورات كالكفر بجميعها، لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض، ثم قال:

﴿١٣٧﴾ ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . أي: من تكرر منه الكفر بعد الإيمان، فاهتدى ثم ضل، وأبصر ثم عمي، وأمن ثم كفر واستمر على كفره، وازداد منه، فإنه بعيد من التوفيق والهداية لأقوم الطريق، وبعيد من المغفرة، لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها. فإن كفره، يكون عقوبة وطبعاً، لا يزول كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ . ونقل أفتدنتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴿١٣٨﴾ . ودلت الآية: أنهم إن لم يزدادوا كفراً، بل رجعوا إلى الإيمان، وتركوا ما هم عليه من الكفران، فإن الله يغفر لهم، ولو تكررت منهم الردة. وإذا كان هذا الحكم في الكفر، فغيره من المعاصي التي دونه من باب أولى أن العبد لو تكررت منه، ثم عاد إلى التوبة، عاد الله له بالمغفرة.

﴿١٣٨ - ١٣٩﴾ ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴿١٣٩﴾ . البشارة تستعمل في الخير، وتستعمل في الشر بقيد، كما في هذه الآية. يقول تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ أي: الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، بأفصح بشارة وأسوأها، وهو العذاب الأليم، وذلك بسبب محبتهم الكفار ومواليتهم ونصرتهم، وتركهم لموالات المؤمنين، فأبي: شيء حملهم على ذلك؟ أيتنون عندهم العزة؟

وهذا هو الواقع من أحوال

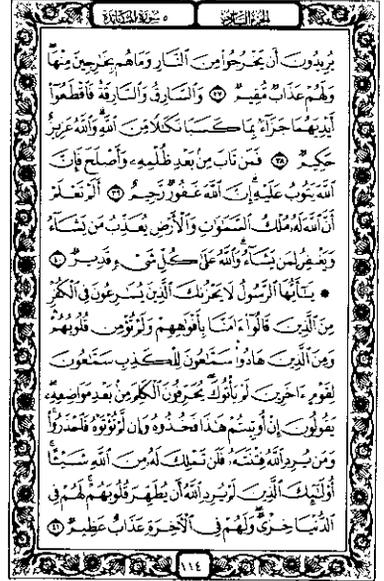
خفيها وجليها، وفي هذا تهديد شديد للذي يلوي أو يعرض. ومن باب أولى وأحرى الذي يحكم بالباطل، أو يشهد بالزور، لأنه أعظم جرماً، لأن الأولين تركوا الحق، وهذا ترك الحق وقام بالباطل.

﴿١٣٦﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبله ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ . اعلم أن الأمر إما أن يوجه إلى من لم يدخل في الشيء ولم يتصف بشيء منه، فهذا يكون أمراً له بالدخول فيه، وذلك كأمراً من ليس بمؤمن بالإيمان، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزلنا مصدقاً لما معكم﴾ الآية.

وإما أن يوجه إلى من دخل في الشيء، فهذا يكون أمره ليصحح ما وجد منه ويحصل ما لم يوجد، ومنه ما ذكره الله في هذه الآية من أمر المؤمنين بالإيمان، فإن ذلك يقتضي أمرهم بما يصحح إيمانهم، من الإخلاص والصدق، وتجنب المفسدات والتوبة من جميع المنقصات.

ويقتضي أيضاً الأمر بما لم يوجد من المؤمن، من علوم الإيمان وأعماله، فإنه كلما وصل إليه نص، وفهم معناه واعتقده، فإن ذلك من الإيمان المأمور به. وكذلك سائر الأعمال الظاهرة والباطنة، كلها من الإيمان، كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة، وأجع عليه سلف الأمة.

ثم الاستمرار على ذلك والشبات عليه إلى الممات كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ وأمر هنا بالإيمان به وبرسوله، وبالقرآن وبالكتب المتقدمة، فهذا كله من الإيمان الواجب، الذي لا يكون العبد مؤمناً إلا به، إجمالاً فيما لم يصل إليه تفصيله، وتفصيلاً فيما علم من ذلك بالتفصيل، فمن آمن بهذا الإيمان المأمور به، فقد اهتدى وأنجح. ﴿ومن



وحمل إرادته، وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به.

وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى، ولهذا نبه تعالى على إزالة هذا المانع بقوله: ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ . أي: فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق، فإنكم إن اتبعتموها عدلتم عن الصواب، ولم توفقوا للعدل، فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلاً والباطل حقاً، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، فمن سلم من هوى نفسه، وفق للحق، وهدى إلى الصراط المستقيم.

ولما بين أن الواجب القيام بالقسط، نهي عن ما يصاد ذلك، وهو لي اللسان عن الحق في الشهادات وغيرها، وتحريف النطق عن الصواب المقصود من كل وجه، أو من بعض الوجوه، ويدخل في ذلك تحريف الشهادة وعدم تكميلها، أو تأويل الشاهد على أمر آخر، فإن هذا، من اللي، لأنه الانحراف عن الحق.

﴿أو تعرضوا﴾ . أي: تركوا القسط المنوط بكم، كترك الشاهد لشهادته وترك الحاكم لحكمه، الذي يجب عليه القيام به.

﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ . أي: محيط بما فعلتم، يعلم أعمالكم

المنافقين، ساء ظنهم بالله، وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين، ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين، وقصر نظرهم عما وراء ذلك، فاتخذوا الكافرين أولياء، يعززون بهم ويستصرون.

والحال أن العزة لله جميعاً، فإن نواصي العباد بيده، ومشيئته نافذة فيهم. وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة، فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين، وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالة الكافرين؛ وترك موالة المؤمنين، وأن ذلك من صفات المنافقين، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم، وبغض الكافرين وعداوتهم.

﴿١٤٠ - ١٤١﴾ ﴿وقد نزل عليكم

في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهنأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً * الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فأله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً * أي: وقد بين الله لكم فيما أنزل عليكم حكمه الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي * أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهنأ بها * أي: يستهان بها. وذلك أن الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها، وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها، وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، ففد الإيمان الكفر بها، وضد تعظيمها الاستهنأ بها واحتقارها، ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم.

وكذلك المتدعون على اختلاف

أنواعهم، فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله، لأنها لا تدل إلا على حق، ولا تستلزم إلا صدقاً، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق، التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم حدوده التي حدها لعباده ومنتهى هذا النهي عن القعود معهم * حتى يخوضوا في حديث غيره * أي: غير الكفر بآيات الله والاستهنأ بها.

﴿إنكم إذا﴾ أي: إن قعدتم معهم في الحال المذكورة * مثلهم * لأنكم رضيتم بكفرهم واستهنأ بهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها، والحاصل أن من حضر مجلساً يعصى الله به، فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم، مع القدرة أو القيام مع عدمها.

﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾ كما اجتمعوا على الكفر والموالاة ولا ينفع الكافرين^(١) مجرد كونهم في الظاهر مع المؤمنين كما قال تعالى: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم﴾ إلى آخر الآيات.

ثم ذكر تحقيق موالة المنافقين للكافرين، ومعاداتهم للمؤمنين فقال: ﴿الذين يتربصون بكم﴾ أي: ينتظرون الحالة التي تصيرون عليها، وتنتهون إليها، من خير أو شر، قد أعدوا لكل حالة جواباً بحسب نفاقهم. ﴿فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم﴾ فيظهرون أنهم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ليسلوا من القدر والطعن عليهم، وليشركوهم في الغنيمة والفيء، وليتصروا بهم.

﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ ولم يقل فتح، لأنه لا يحصل لهم فتح، يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة، بل غاية ما يكون، أن يكون لهم نصيب غير مستقر، حكمة من الله. فإذا كان ذلك قالوا ألم نستحوذ عليكم * أي: نستولي عليكم * ونمنعكم من

سْتَعْرِضُوا لِكَلْبٍ أَكْرَأْتِ لِلشَّحْبِ إِنَّ جَاءَكَ فَأَحْرَسَ مِنْهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَأَنْ تُعْرِضَ عَنْهُمْ فَلْيَعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْ تُصِرَّ بِهُمْ فَلْيَصِرْ بِهُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَصِفُونَ أَلْبَسٌ وَرَكِبٌ ﴿١٤٠﴾ وَتَمَّزُّوا بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِيهِ هُدًى وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْتُونَكَ الْبَيِّنَاتِ أَلَيْسَ أَسْمَاءُ وَابْنُ مَرْثَدٍ وَالْأَخْبَانُ بِمَا اسْتَحْضَرُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِمْ مَكْرَهًا فَلَا تُقْسُوا الْقَاسَ أَنْتُمْ وَنَحْنُ بِمَا أَنْزَلْنَا وَأَبَاقِيهِ نَسَاءً لَيْلًا وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَحِمْ بِمَا أَنْزَلْنَا اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٤٢﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ النَّفِيسَ وَالْعَصْرَ بِالْعَظِيمِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالْيَسْرَ بِالْيَسْرِ وَالْجُرْحَ بِالْجُرْحِ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ تَقْوَاهُ فَهُوَ كَافِرٌ لَنْ نَنْزِلَ بِمَا أَنْزَلْنَا اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤٣﴾

المؤمنين * أي: يتصنعون عندهم بكف أيديهم عنهم مع القدرة، ومنعهم من المؤمنين بجميع وجوه المنع من تنفيذهم، وتزهدهم في القتال، ومظاهرة الأعداء عليهم، وغير ذلك مما هو معروف منهم.

﴿فأله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ فيجازي المؤمنين ظاهراً وباطناً بالجنة، ويعذب المنافقين والمنافات، والمشركين والمشركات.

﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ أي: تسلطاً واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصوره، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، ولا يزال الله يحدث من أسباب النصر للمؤمنين، ودفع لتسلط الكافرين، ما هو مشهور بالعيان. حتى إن [بعض] المسلمين الذين تحكّمهم الطوائف الكافرة، قد بقوا محترمين لا يتعرضون لأذيانهم، ولا يكونون مستغربين عندهم، بل لهم العز التام من الله، فله^(٢) الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

﴿١٤٢ - ١٤٣﴾ ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً * مذبذبين

(٣) في ب: فله.

(٢) زيادة من هاش ب.

(١) في ب: المنافقين.



﴿تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ أي: حجة واضحة على عقوبتكم، فإنه قد أنذرنا وحذرتنا منها، وأخبرنا بما فيها من الفساد، فسلوكها بعد هذا موجب للعقاب.

وفي هذه الآية دليل على كمال عدل الله، وأن الله لا يعذب أحداً؛ قبل قيام الحجة عليه، وفيها التحذير من المعاصي؛ فإن فاعلها يجعل لله عليه سلطاناً مبيناً.

﴿١٤٥ - ١٤٧﴾ * إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً * إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً * ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً * يخبر تعالى عن مآل المنافقين، وأشرف الحالات من العقاب. فهم تحت سائر الكفار، لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة، والتمسك من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجه لا يشعر به ولا يحس. ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العقاب، وليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق، إلا من آمن بالله عليهم بالتوبة من السيئات. ﴿وأصلحوا﴾ له الظواهر والبواطن ﴿واعتصموا بالله﴾ والتجأوا إليه، في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم.

﴿وأخلصوا دينهم﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿الله﴾.

فقصدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والنفاق، فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ أي: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة. ﴿وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾ لا يعلم كنهه

متشاقلين لها، متبرمين من فعلها، والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم، فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله وإلى ما عنده، عادمة للإيمان، لم يصدر منهم الكسل، ﴿يراؤون الناس﴾ أي: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم، وهذا مصدر أعمالهم، مراءاة الناس، يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم واحترامهم، ولا يخلصون لله فلهذا ﴿لا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ لا امتلاء قلوبهم من الرياء، فإن ذكر الله تعالى وملازمته، لا يكون إلا من مؤمن ممتلىء قلبه بمحبة الله وعظمته.

﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ أي: مترددين بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين. فلا من المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا من الكافرين ظاهراً وباطناً. أعطوا باطنهم للكافرين، وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال بقدر. ولهذا قال: ﴿ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي: لن تجد طريقاً لهديته، ولا وسيلة لتترك غوايته، لأنه انغلق عنه باب الرحمة، وصار بدله كل نقمة.

فهذه الأوصاف المذمومة، تدل بتنبهها على أن المؤمنين متصفون بضدها، من الصدق ظاهراً وباطناً والإخلاص، وأنهم لا يجهل ما عندهم، ونشاطهم في صلاتهم وعباداتهم، وكثرة ذكرهم لله تعالى. وأنهم قد هداهم الله ووقفهم للضراط المستقيم. فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين، وليختار أيهما أولى به، وبالله^(١) المستعان.

﴿١٤٤﴾ * يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً * لما ذكر أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، نهي عباده المؤمنين أن يتصرفوا بهذه الحالة القبيحة، وأن يشابهوا المنافقين، فإن ذلك موجب لأن

بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً * يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه، من قبيح الصفات، وشنائع السمات، وأن طريقتهم مخادعة الله تعالى، أي: بما أظهروه من الإيمان، وأبطنوه من الكفران، ظنوا أنه يروج على الله ولا يعلمه ولا يبديه لعباده، والخال أن الله خادعهم، فمجرد وجود هذه الحال منهم، ومشيههم عليها، خداع لأنفسهم. أي: خداع أعظم ممن يسعى سعياً يعود عليه بالهوان والذل والخرمان!!؟

ويدل بمجردة على نقص عقل صاحبه، حيث جمع بين العصية، وريأها حسنة، وظنها من العقل والمكر، فله ما يصنع الجهل والخذلان بصاحبه!! ومن خداعه لهم يوم القيامة ما ذكره الله في قوله: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قبل أرجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم﴾ إلى آخر الآيات.

ومن صفاتهم أنهم ﴿إذا قاموا إلى الصلاة﴾ - إن قاموا - التي هي أكبر الطاعات العملية، ﴿قاموا كسالى﴾

إليه، فلهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً قَدِيرًا﴾ أي: يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة، فيسدل عليهم ستره، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته.

وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له، ولهذا يعمل الأحكام بالأسماء الحسنى، كما في هذه الآية. لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء رتب على ذلك، بأن أحالنا على معرفة أسمائه، وأن ذلك يغنيننا عن ذكر ثوابها الخاص.

﴿١٥٠ - ١٥٢﴾ ﴿إِنَّ السَّادِقِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْ يَفْرُقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُوْمَنُ بَعْضُ وَنُكْفَرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ * أولئك هم الكافرون حقاً وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً * والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً *.

هنا قسمان قد وضحا لكل أحد: مؤمن بالله وبرسوله كلهم وكتبه، وكافر بذلك كله.

ويبقى قسم ثالث: وهو الذي يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل دون بعض، وأن هذا سبيل ينجي من عذاب الله، إن هذا إلا مجرد أماني. فإن هؤلاء يريدون التفريق بين الله وبين رسوله.

فإن من تولى الله حقيقة تولى جميع رسوله، لأن ذلك من تمام توليه، ومن عادى أحداً من رسوله فقد عادى الله، وعادى جميع رسوله كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ الآيات.

وكذلك من كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل، بل بالرسول الذي يزعم أنه به مؤمن، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ وذلك لثلاث يتوهم أن مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر.

ووجه كونهم كافرين - حتى بما

بعقابكم، بل العاصي لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل الطمع لنفسه.

والشكر هو خضوع القلب، واعتراؤه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعته، وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه.

﴿١٤٨ - ١٤٩﴾ ﴿لَا يَجِبُ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾ * إن تبدوا خيراً أو تحفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً * يجبر تعالى أنه لا يجب الجهر بالسوء من القول، أي: يبغض ذلك ويمقتة ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن، كالشتم والقذف والسب ونحو ذلك، فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغضه الله.

ويدل مفهومها أنه يجب الحسن من القول كالذكر والكلام الطيب اللين.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه، ويتشكى^(١) منه، ويجهر بالسوء لمن جهر له به، من غير أن يكذب عليه، ولا يزيد على مظلمته، ولا يتعدى بشتمه غير ظالمه، ومع ذلك فعفوه، وعدم مقابلته أولى، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾ ولما كانت الآية قد اشتملت على الكلام السيء والحسن والمباح، أخبر تعالى أنه سميع، فيسمع أقوالكم، فاحذروا أن تتكلموا بما يبغض ربكم فيعاقبكم على ذلك.

وفيه أيضاً ترغيب على القول الحسن ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم ومصدر أقوالكم. ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْراً أَوْ لَحَفَوْهُ﴾ وهذا يشمل كل خير قولي وفعلي، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب.

﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أي: عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه، فإن الجزء من جنس العمل. فمَنْ عفا لله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله

إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلِحُوا﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما، خصوصاً في هذا المقام الخرج الذي تمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافياً لكل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيهم أجراً عظيماً، مع أن السياق فيهم. بل قال:

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيماً﴾ لأن هذه القاعدة الشرعية - لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب^(١) عليه ثواباً أو عقاباً وكان ذلك مشتركاً بينه وبين الجنس الداخل فيه، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولثلاث يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين، مع المؤمنين وله ثوابهم.

ثم أخبر تعالى عن كمال غناه، وسعة حلمه، ورحمته وإحسانه، فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ﴾ والحال أن الله شاكر عليم. يعطي المتحملين لأجله الأثقال الدائنين في الأعمال جزيل الثواب وواسع الإحسان. ومن ترك شيئاً لله أعطاه الله خيراً منه.

ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم، وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وضد ذلك. وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه، فإذا أنتم إليه، فأبي: شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفى بعذابكم، ولا ينتفع

(١) في ب: يترتب.

(٢) في ب: ويشكي.

عياناً، واتخاذهم العجل إليها يعبدونه، من بعد ما رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يره غيرهم .

ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم وهو التوراة، حتى رفع الطور من فوق رؤوسهم، وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم، قبلوا ذلك على وجه الإغماض، والإيمان الشبيه بالإيمان الضروري .

ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجداً مستغفرين، فخالفوا القول والفعل . ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت، فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة .

وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم، فنبذوه وراء ظهورهم، وكفروا بآيات الله، وقتلوا رسله بغير حق . ومن قولهم: أنهم قتلوا المسيح عيسى وصلبوه، والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه، بل شبه لهم غيره، فقتلوا غيره وصلبوه .

وادعاهم أن قلوبهم غلف لا تفقه ما تقول لهم ولا تفهمه، وبصدهم الناس عن سبيل الله، فصدوهم عن الحق، ودعوهم إلى ما هم عليه من الضلال والغبي . وبأخذهم السحت والربا مع نبي الله لهم عنه، والتشديد فيه .

فالذين فعلوا هذه الأفاعيل، لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمداً أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وهذه الطريقة من أحسن الطرق لمحااجة الخصم المبطل، وهو أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ما جعله شبهة له ولغيره في رد الحق، أن يبين من حاله الخبيثة وأفعاله الشنيعة، ما هو من أقبح ما صدر منه، ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادي الخسيس، وأن له مقدمات يجعل هذا معها .

وكذلك كل اعتراض يعترضون به على نبوة محمد ﷺ يمكن أن يقابل بمثله، أو ما هو أقوى منه في نبوة من يدعون إيمانهم به، ليكتفى بذلك شرهم، وينقمع باطلهم، وكل حجة سلكوها في تقريرهم لنبوة من آمنوا

وإن الذين اختلّفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً * فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً * وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً * هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ على وجه العناد والاقتراح، وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم . وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل، وهذا غاية الظلم منهم والجهل، فإن الرسول بشر عبد مديبر، ليس في يده من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهو الذي يرسل وينزل ما يشاء على عباده، كما قال تعالى عن الرسول، لما ذكر الآيات التي فيها اقتراح المشركين على محمد ﷺ، ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ .

وكذلك جعلهم الفارق بين الحق والباطل مجرد إنزال الكتاب جملة أو مفرقاً، مجرد دعوى لا دليل عليها، ولا مناسبة، بل ولا شبهة، فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء أن الرسول الذي يأتيكم بكتاب نزل مفرقاً فلا تؤمنوا به ولا تصدقوه؟

بل نزول هذا القرآن مفرقاً بحسب الأحوال، مما يدل على عظمتة واعتناء الله بمن أنزل عليه، كما قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ .

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوه مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به، من سؤالهم له رؤية الله

زعموا الإيمان به - أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به موجود هو أو مثله، أو ما فوقه للنبي الذي كفروا به، وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به موجود مثلها أو أعظم منها فيمن آمنوا به .

فلم يبق بعد ذلك إلا التشهي والهوى ومجرد الدعوى التي يمكن كل أحد أن يقابلها بمثلها، ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقاً، ذكر عقاباً شاملاً لهم ولكل كافر، فقال: ﴿وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ كما تكبروا عن الإيمان بالله، أهانهم بالعذاب الأليم المخزي .

﴿والذين آمنوا بالله ورسله﴾ وهذا يتضمن الإيمان بكل ما أخبر الله به عن نفسه، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام . ﴿ولم يفرقوا بين أحد﴾ من رسله، بل آمنوا بهم كلهم، فهذا هو الإيمان الحقيقي، واليقين المبني على البرهان .

﴿أولئك سوف يؤتهم أجورهم﴾ أي: جزء إيمانهم، وما ترتب عليه من عمل صالح، وقول حسن، وخلق جميل، كل على حسب حاله . ولعل هذا هو السر في إضافة الأجور إليهم، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يتغفر السيئات ويقبل الحسنات .

﴿١٥٣ - ١٦١﴾ ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً * ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً * وكفرهم وقولهم على مريم هتنا عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم

به، فإنها ونظيرها وما هو أقوى منها، دالة ومقررة لبنة محمد ﷺ.

عنه، فمتنوعا المحتاجين عن يبايعونه عن العدل، فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا يصدد حلها، لكونها طيبة، وأما التحريم الذي على هذه الأمة، فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم وديانهم.

ولما كان المراد من تعديد ما عدد الله من قبائحهم هذه المقابلة، لم يسطها في هذا الموضع، بل أشار إليها، وأحال على مواضعها، وقد بسطها في غير هذا الموضع في المحل اللائق ببسطها.

وقوله: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ يحتمل أن الضمير هنا في قوله: ﴿قبل موته﴾ يعود إلى أهل الكتاب، فيكون على هذا كل كتابي يحضره الموت، ويعاين الأمر حقيقة، فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام، ولكنه إيمان لا ينفع، إيمان اضطرار، فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد، وأن لا يستمروا على هذه الحال التي سيندمون عليها قبل مماتهم، فكيف يكون حالهم يوم حشرهم وقيامهم؟! و﴿قبل موته﴾ راجع إلى عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح، وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار.

فإنه تكاثرت الأحاديث الصحيحة في نزوله عليه السلام في آخر هذه الأمة. يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين. ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً، يشهد عليهم بأعمالهم، وهل هي موافقة لشرع الله أم لا؟

وحينئذ لا يشهد إلا بطلان كل ما هم عليه، مما هو مخالف لشرعة القرآن ولما دعاهم إليه محمد ﷺ، علمنا بذلك، لعلمنا بكمال عدالة المسيح عليه السلام وصدقه، وأنه لا يشهد إلا بالحق، إلا أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق، وما عداه فهو ضلال وباطل.

ثم أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيراً من الطيبات التي كانت حلالاً عليهم وهذا تحريم عقوبة، بسبب ظلمهم واعتدائهم، وصددهم الناس عن سبيل الله، ومنعهم إياهم من الهدى، وبأخذهم الربا وقد نهوا عنه، فمتنوعا المحتاجين عن يبايعونه عن العدل، فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا يصدد حلها، لكونها طيبة، وأما التحريم الذي على هذه الأمة، فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم وديانهم.

وقوله: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ يحتمل أن الضمير هنا في قوله: ﴿قبل موته﴾ يعود إلى أهل الكتاب، فيكون على هذا كل كتابي يحضره الموت، ويعاين الأمر حقيقة، فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام، ولكنه إيمان لا ينفع، إيمان اضطرار، فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد، وأن لا يستمروا على هذه الحال التي سيندمون عليها قبل مماتهم، فكيف يكون حالهم يوم حشرهم وقيامهم؟! و﴿قبل موته﴾ راجع إلى عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح، وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار.

فإنه تكاثرت الأحاديث الصحيحة في نزوله عليه السلام في آخر هذه الأمة. يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين. ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً، يشهد عليهم بأعمالهم، وهل هي موافقة لشرع الله أم لا؟

وحينئذ لا يشهد إلا بطلان كل ما هم عليه، مما هو مخالف لشرعة القرآن ولما دعاهم إليه محمد ﷺ، علمنا بذلك، لعلمنا بكمال عدالة المسيح عليه السلام وصدقه، وأنه لا يشهد إلا بالحق، إلا أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق، وما عداه فهو ضلال وباطل.

ثم أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيراً من الطيبات التي كانت حلالاً عليهم وهذا تحريم عقوبة، بسبب ظلمهم واعتدائهم، وصددهم الناس عن سبيل الله، ومنعهم إياهم من الهدى، وبأخذهم الربا وقد نهوا عنه، فمتنوعا المحتاجين عن يبايعونه عن العدل، فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا يصدد حلها، لكونها طيبة، وأما التحريم الذي على هذه الأمة، فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم وديانهم.

وقوله: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ يحتمل أن الضمير هنا في قوله: ﴿قبل موته﴾ يعود إلى أهل الكتاب، فيكون على هذا كل كتابي يحضره الموت، ويعاين الأمر حقيقة، فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام، ولكنه إيمان لا ينفع، إيمان اضطرار، فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد، وأن لا يستمروا على هذه الحال التي سيندمون عليها قبل مماتهم، فكيف يكون حالهم يوم حشرهم وقيامهم؟! و﴿قبل موته﴾ راجع إلى عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح، وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار.

وقوله: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ يحتمل أن الضمير هنا في قوله: ﴿قبل موته﴾ يعود إلى أهل الكتاب، فيكون على هذا كل كتابي يحضره الموت، ويعاين الأمر حقيقة، فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام، ولكنه إيمان لا ينفع، إيمان اضطرار، فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد، وأن لا يستمروا على هذه الحال التي سيندمون عليها قبل مماتهم، فكيف يكون حالهم يوم حشرهم وقيامهم؟! و﴿قبل موته﴾ راجع إلى عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح، وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار.



العدد الكثير والجسم الغفير، فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل أو العناد. ومنها: أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه، وأن بعضهم يصدق بعضاً، ويوافق بعضهم بعضاً.

ومنها: أنه من جنس هؤلاء الرسل، فليعتبره المعتبر بإخوانه المرسلين، فدعوته دعوتهم؛ وأخلاقهم متفقة؛ ومصدرهم واحد؛ وغايتهم واحدة، فلم يقرنه بالجهوليين؛ ولا بالكذابين، ولا بالملوك الظالمين.

ومنها: أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم، من التنويه بهم، والثناء الصادق عليهم، وشرح أحوالهم، مما يزداد به المؤمن إيماناً بهم، ومحبة لهم، واقتداء بهديهم، واستئناساً بسنتهم، ومعرفة بحقوقهم، ويكون ذلك مصداقاً لقوله: ﴿سلام على نوح في العالمين﴾ ﴿سلام على إبراهيم﴾ ﴿سلام على موسى وهارون﴾ ﴿سلام على آل ياسين، إنا كذلك نجزي المحسنين﴾.

فكل محسن له من الثناء الحسن بين الأنام بحسب إحسانه. والرسل - خصوصاً هؤلاء المسمون - في المرتبة العليا من الإحسان.

ولما ذكر اشتراكهم بوحية، ذكر تخصيص بعضهم، فذكر أنه أتى داود الزبور، وهو الكتاب المعروف، المزبور

طريقاً * لإلّا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً * لما أخبر عن رسالة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأخبر برسالة خاتمهم محمد، وشهد بها وشهدت ملائكته - لزم من ذلك، ثبوت الأمر المقرر والمشهود به، فوجب تصديقهم، والإيمان بهم واتباعهم.

ثم توعد من كفر بهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: جمعوا بين الكفر بأنفسهم، وصددهم الناس عن سبيل الله. وهؤلاء هم أئمة الكفر ودعاة الضلال ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾. وأي: ضلال أعظم من ضلال من ضل بنفسه وأضل غيره، فبإلثمين، ورجع بالخسارتين، وفاتته الهدياتن، ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم، وإلّا فالكفر عند إطلاق الظلم يدخل فيه.

والمراد بالظلم هنا أعمال الكفر والاستغراق فيه، فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية للضراط المستقيم. ولهذا قال: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ وإنما تعذرت المغفرة لهم والهداية، لأنهم استمروا في طغيانهم، وازدادوا في كفرانهم^(١)، فطبع على قلوبهم وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا ﴿وَمَا يَرْكَبُ ظُلْمًا لِلْعَبِيدِ﴾.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: لا يبالي الله بهم ولا يعاب، لأنهم لا يصلحون للخير، ولا يليق بهم إلا الحالة التي اختاروها لأنفسهم.

﴿١٧٠﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد ﷺ. وذكر السبب الموجب للإيمان به، والفائدة من الإيمان به، والمضرة من عدم الإيمان به، فالسبب الموجب هو إخباره

الحمد وله الشكر. ونسأله كما ابتدأ علينا نعمته بإرسالهم، أن يتمها بالتوفيق لسلك طريقهم، إنه جواد كريم.

﴿١٦٦﴾ ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ لما ذكر أن الله أوحى إلى رسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى إخوانه من المرسلين، أخبر هنا بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به، وأنه ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ يحتمل أن يكون المراد أنزله مشتقاً على علمه، أي: فيه من العلوم الإلهية والأحكام الشرعية والأخبار الغيبية، ما هو من علم الله تعالى الذي علم به عباده.

ويحتمل أن يكون المراد: أنزله صادراً عن علمه، ويكون في ذلك إشارة وتنبية على وجه شهادته، وأن المعنى: إذا كان تعالى أنزل هذا القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي، وهو يعلم ذلك، ويعلم حالة الذي أنزله عليه، وأنه دعا الناس إليه، فمن أجابه وصدقه كان وليه، ومن كذبه وعاداه كان عدوه واستباح ماله ودمه، والله تعالى يمكنه، ويوالي نصره، ويجب دعوته، ويخذل أعداءه وينصر أوليائه، فهل توجد شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر؟! ولا يمكن القدح في هذه الشهادة، إلا بعد القدح بعلم الله وقدرته وحكمته، وإخباره تعالى بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله، لكمال إيمانهم ولجلالة هذا المشهود عليه.

فإن الأمور العظيمة لا يستشهد عليها إلا الخواص، كما قال تعالى في الشهادة على التوحيد: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وكفى بالله شهيداً.

﴿١٦٧ - ١٦٩﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ



الذي خص الله به داود عليه السلام لفضله وشرفه، وأنه كلم موسى تكليماً، أي: مشافهة منه إليه، لا بواسطة حتى اشتهر بهذا عند العالمين، فيقال: «موسى كلمه الرحمن».

وذكر أن الرسل منهم من قصه الله على رسوله، ومنهم من لم يقصه عليه، وهذا يدل على كثرتهم وأن الله أرسلهم مبشرين لمن أطاع الله واتبعهم، بالسعادة الدنيوية والأخروية، ومنذرين من عصى الله وخالفهم بشقاوة الدارين، لثلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فيقولوا: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير. فقد جاءكم بشير ونذير﴾.

فلم يبق للخلق على الله حجة لإرساله الرسل تترى، يبينون لهم أمر دينهم، ومراضي ربهم ومساخته، وطرق الجنة وطرق النار، فمن كفر منهم بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وهذا من كمال عزته تعالى وحكمته، أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضاً من فضله وإحسانه، حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء أعظم ضرورة تقدر، فأزال هذا الاضطراب، فله

فنفخ في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله، بعميسى عليه السلام.

فلما بين حقيقة عيسى عليه السلام، أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة، أخذهم عيسى، والثاني مريم، فهذه مقالة النصارى قبحهم الله.

فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك خير لهم، لأنه الذي يتعين أنه سبيل النجاة، وما سواه فهو طريق الهلاك، ثم نزه نفسه عن الشريك والولد، فقال: ﴿إنما الله إله واحد﴾ أي: هو المنفرد بالالوهية، الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿سبحانه﴾ أي: تنزهه وتقدس أن يكون له ولد. ﴿لأن له ما في السماوات وما في الأرض﴾ فالكل مملوكون له، مفتقرون إليه، فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد.

ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي، أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظها، ومجازيهم عليها تعالى.

﴿١٧٢ - ١٧٣﴾ ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾.

لما ذكر تعالى غلو النصارى في عيسى عليه السلام، وذكر أنه عبده ورسوله، ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادة ربه، أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها لا هو ﴿ولا الملائكة المقربون﴾. فزهدهم عن الاستنكاف، وتزيههم عن الاستكبار من باب أول، ونفي الشيء فيه إثبات ضده.

أي: عيسى والملائكة المقربون، قد رغبوا في عبادة ربه، وأحبوها وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم، والفوز العظيم،

الهداية والغواية، الحكيم في وضع الهداية والغواية موضعهما.

﴿١٧١﴾ ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله كيبلاً﴾ ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وهو مجاوزة الحد والقدر المشروع، إلى ما ليس بمشروع. وذلك كقول النصارى في غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفع عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله، فكما أن التخصيص والتفريط من المنهيات، فالغلو كذلك، ولهذا قال: ﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء:

أمرين منهي عنهما، وهما قول الكذب على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وشرعه ورسله، والثالث: مأموره وهو قول الحق في هذه الأمور.

ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق في شأن عيسى عليه السلام نصّاً على قول الحق فيه، المخالف لطريقة اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ أي: غاية المسيح عليه السلام ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال، أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة التي هي أعلى الدرجات، وأجل الثوبات.

وأنه ﴿كلمته﴾ التي ﴿ألقاها إلى مريم﴾ أي: كلمة تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة الشريف والتكريم.

وكذلك قوله: ﴿وروح منه﴾ أي: من الأرواح التي خلقها، وكمثلها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله روحه جبريل عليه السلام،

بأنه جاءهم بالحق. أي: فمجئته نفسه حق، وما جاء به من الشرع حق، فإن العاقل يعرف أن بقاء الخلق في جهلهم يعمهون، وفي كفرهم يترددون، والرسالة قد انقطعت عنهم، غير لائق بحكمة الله ورحمته، فمن حكمته ورحمته العظيمة نفس إرسال الرسول إليهم، ليعرفهم الهدى من الضلال، والغى من الرشد، فمجرد النظر في رسالته دليل قاطع على صحة نبوته.

وكذلك النظر إلى ما جاء به من الشرع العظيم والصرط المستقيم. فإن فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلية، والخبر عن الله وعن اليوم الآخر - ما لا يعرف إلا بالوحي والرسالة. وما فيه من الأمر بكل خير وصلاح، ورشد، وعدل، وإحسان، وصدق، وبر، وصلة، وحسن خلق، ومن النهي عن الشر والفساد، والبغي والظلم، وسوء الخلق، والكذب والعقوق، مما يقطع به أنه من عند الله.

وكلما ازداد به العبد بصيرة، ازداد إيمانه ويقينه، فهذا السبب الداعي للإيمان.

وأما الفائدة في الإيمان، فأخبر أنه خير لكم والخير ضد الشر. فالإيمان خير للمؤمنين، في أديانهم وقلوبهم وأرواحهم، ودنياهم وأخراهم. وذلك لما يترتب عليه من المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وأجل، فمن ثمرات الإيمان، فالنصر والهدى والعلم، والعمل الصالح، والسرور والأفراح، والجنة وما اشتملت عليه، من النعيم كل ذلك مسبب عن الإيمان.

كما أن الشقاء الدنيوي والأخروي من عدم الإيمان أو نقصه. وأما مضرة عدم الإيمان به ﷺ، فيعرف بضد ما يترتب على الإيمان به. وأن العبد لا يضر إلا نفسه، والله تعالى غني عنه، لا تضره معصية العاصين، ولهذا قال: ﴿فلان الله ما في السماوات والأرض﴾ أي: الجميع خلقه ومملكه، وتحت تدبيره وتصريفه ﴿وكان الله عليمًا﴾ بكل شيء ﴿حكيمًا﴾ في خلقه وأمره. فهو العليم بمن يستحق

أي: وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْتَصِمْ بِهِ وَيَتَمَسَّكَ بِكِتَابِهِ، مِنْعَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَحَرَمَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَخَلَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْفُسِهِمْ، فَلَمْ يَتَدَاوُوا، بَلْ ضَلُّوا ضَلَالًا مَبِينًا، عَقُوبَةُ لَهُمْ عَلَى تَرْكِهِمُ الْإِيمَانَ، فَحَصَلَتْ لَهُمُ الْحَيِيَّةُ وَالْحَرَمَانُ، نَسَأَلُهُ تَعَالَى الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ وَالْمَعَاذَةَ.

﴿١٧٦﴾ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنَّ امْرؤًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثُ نِصْفًا مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَهُ ﷺ أَي: فِي الْكَلَالَةِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وَهِيَ الْمَيْتُ يَمُوتُ وَلَيْسَ لَهُ وَلَدٌ صَلْبٌ وَلَا وَلَدٌ ابْنٌ، وَلَا أَبٌ، وَلَا جَدٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ امْرؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أَي: لَا ذَكَرٌ وَلَا أَنْثَى، لَا وَلَدٌ صَلْبٌ وَلَا وَلَدٌ ابْنٌ.

وكذلك ليس له والد، بدليل أنه ورث فيه الإخوة، والأخوات بالإجماع لا يرثون مع الوالد، فإذا هلك وليس له ولد، ولا والد ﴿وله أخت﴾ أي: شقيقة أو لأب، لا لأم، فإنه قد تقدم حكمها. ﴿فلها نصف ما ترك﴾ أي: نصف متروكات أخيها، من نقود وعقار وأثاث، وغير ذلك، وذلك من بعد الدين والوصية كما تقدم.

﴿وهو﴾ أي: أخوها الشقيق، أو الذي للأب ﴿يرثها إن لم يكن لها ولد﴾ ولم يقدر له إرثاً لأنه عاصب، فيأخذ مالها كله، إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه، أو ما أبقت الفروض.

﴿فإن كانتا﴾ أي: الأختان ﴿اثنتين﴾ أي: فما فوق ﴿فلهما الثلثان﴾ مما ترك، وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً. أي: اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم مع الإناث ﴿فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ فيسقط فرض الإناث ويعصهن إخوتهن.

﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ أي:

واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ يمتن تعالى على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة والأنوار الساطعة، ويقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة، فقال: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾ أي: حجج قاطعة على الحق تبينه وتوضحه، وتبين ضده.

وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية، الآيات الأفقية والنفسية ﴿سنبين آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

وفي قوله: ﴿من ربكم﴾ ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته، حيث كان من ربكم الذي رباكم التربوية الدينية والدينية، فمن تربيته لكم التي يحمد عليها ويشكر، أن أوصل إليكم البينات، ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم، والوصول إلى جنات النعيم.

﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ وهو هذا القرآن العظيم، الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخريين، والأخبار الصادقة النافعة، والأمر بكل عدل وإحسان وخير، والنهي عن كل ظلم وشر، فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم إن لم يقتبسوا من خيرها.

ولكن انقسم الناس - بحسب الإيمان بالقرآن، والانتفاع به - قسمين:

﴿فأما الذين آمنوا بالله﴾ أي: اعترفوا بوجوده، واتصافه بكل وصف كامل، وتنزيهه من كل نقص وعيب. ﴿واعتصموا به﴾ أي: لجأوا إلى الله واعتمدوا عليه، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم، واستعانوا بربهم. ﴿فسيدخلهم في رحمة منه وفضل﴾ أي: فسيغمدهم بالرحمة الخاصة، فيوفقهم للخيرات، ويجزل لهم الثوبات، ويدفع عنهم البليات والمكروهات.

﴿ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ أي: يوفقهم للعلم والعمل، معرفة الحق والعمل به.

فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار.

ولا يظن أن رفع عيسى أو غيره من الخلق، فوق مرتبته التي أنزله الله فيها، وترفعه عن العبادة كمالاً، بل هو التقص بعينه، وهو عمل الذم والعقاب، ولهذا قال: ﴿ومن﴾

عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ أي: فسيحشر الخلق كلهم إليه، المستكفين والمستكبرين، وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل، وجزائه الفصل.

ثم فصل حكمه فيهم فقال: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالمأمور به، وعمل الصالحات من واجبات ومستحبات، من حقوق الله وحقوق عباده.

﴿فيوفىهم أجورهم﴾ أي: الأجور التي رتبها على الأعمال، كل بحسب إيمانه وعمله.

﴿ويزيدهم من فضله﴾ من الثواب الذي لم تنله أعمالهم، ولم تصل إليه أفعالهم، ولم يحظر على قلوبهم. ودخل في ذلك كل ما في الجنة من المأكول والمشارب، والمناكح، والمناسكح، والسرور، ونعيم القلب والروح، ونعيم البدن، بل يدخل في ذلك كل خير ديني ودنيوي رتب على الإيمان والعمل الصالح.

﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا﴾ أي: عن عبادة الله تعالى ﴿فيعذبهم عذاباً أليماً﴾ وهو سخط الله وغضبه، والنار الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

﴿ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ أي: لا يجدون أحداً من الخلق يتولاهم فيحصل لهم المطلوب، ولا مَنْ ينصرهم فيدفع عنهم المرهوب، بل قد تحلى عنهم أرحم الراحمين، وتركهم في عذابهم خالدين، وما حكم به تعالى فلا راد لحكمه، ولا مغير لقضائه.

﴿١٧٤ - ١٧٥﴾ ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ فأما الذين آمنوا بالله



وبأن النبي ﷺ قاتل أهل الطائف في ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم.

وقال آخرون: إن النهي عن القتال في الأشهر الحرم غير منسوخ لهذه الآية وغيرها، مما فيه النهي عن ذلك بخصوصه، وحلوا النصوص المطلقة الواردة على ذلك، وقالوا: المطلق يحمل على المقيد.

وفصل بعضهم فقال: لا يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، وأما استدامته وتكميله إذا كان أوله في غيرها، فإنه يجوز.

وحلوا قتال النبي ﷺ لأهل الطائف على ذلك، لأن أول قتالهم في «حنين» في «شوال»، وكل هذا في القتال الذي ليس المقصود منه الدفع.

فأما قتال الدفع إذا ابتدأ الكفار المسلمين بالقتال، فإنه يجوز للمسلمين القتال، دفعاً عن أنفسهم في الشهر الحرام وغيره بإجماع العلماء.

وقوله: ﴿ولا الهدى ولا القلائد﴾ أي: ولا تحلوا الهدى الذي يهدي إلى بيت الله في حج أو عمرة، أو غيرها من نعم وغيرها، فلا تصدوه عن الوصول إلى محله، ولا تأخذوه بسرقة أو غيرها، ولا تقصروا به، أو تحمله ما لا يطيق، خوفاً من تلفه قبل وصوله إلى محله، بل عظموه وعظموا من جاء به.

﴿ولا القلائد﴾ هذا نوع خاص من أنواع الهدى، وهو الهدى الذي يقتل له قلاند أو عرى، فيجعل في أعناقهم إظهاراً لشعائر الله، وحللاً للناس على الاقتداء، وتعليماً لهم للسنة، ويعرف أنه هدي فيحترم، ولهذا كان تقليد الهدى من السنن والشعائر المسنونة.

﴿ولا آمين البيت الحرام﴾ أي: قاصدين له ﴿يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً﴾ أي: من قصد هذا البيت الحرام، وقصده فضل الله بالتجارة والمكاسب الباحة، أو قصده رضوان الله بحجه وعمرة والطواف به، والصلاة، وغيرها من أنواع العبادات، فلا تتعرضوا له بسوء، ولا تهينوه، بل أكرموه، وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم.

ودخل في هذا الأمر الأمر بتأمين الطرق الموصلة إلى بيت الله، وجعل القاصدين له مطمئنين مستريحين، غير خائفين على أنفسهم من القتل فما دونه، ولا على أموالهم من المكس والنهب ونحو ذلك.

وهذه الآية الكريمة مخصوصة بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ فالمشرك لا يمكن من الدخول إلى الحرم.

والتخصيص في هذه الآية بالنهي عن التعرض لمن قصد البيت ابتغاء فضل الله أو رضوانه - يدل على أن من قصده ليلحد فيه بالمعاصي، فإن من تمام احترام الحرم صد من هذه حاله عن الإفساد ببيت الله، كما قال تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾.

ولما نهاهم عن الصيد في حال الإحرام قال: ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ أي: إذا حللتم من الإحرام بالخيخ والعمرة، وخرجتم من الحرم حل لكم الاصطياد، وزال ذلك التحريم. والأمر بعد التحريم يرد الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل.

﴿ولا يجرم منكم شئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾

أي: لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم واعتداؤهم عليكم، حيث صدوكم عن المسجد على الاعتداء عليهم، طلباً للاشتفاء منهم، فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله، ويسلك طريق العدل، ولو جنى عليه أو ظلم واعتدي عليه، فلا يحمل له أن يكذب على من كذب عليه، أو يخون من خانه.

﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ أي: ليعن بعضكم بعضاً على البر. وهو: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الآدميين.

والتقوى في هذا الموضع: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة. وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها، بكل قول يبعث عليها وينشط لها، وبكل فعل كذلك.

﴿ولا تعاونوا على الإثم﴾ وهو التجرؤ على المعاصي التي يأتيها صاحبها، ويخرج. ﴿والعدوان﴾ وهو التعدي على الخلق في دماءهم وأموالهم وأعراضهم، فكل معصية وظلم يجب على العبد، كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه.

﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ على من عصاه وتجراً على محارمه، فاحذروا المحارم لئلا يحمل بكم عقابه العاجل والآجل.

﴿٣﴾ ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾ هذا الذي حولنا الله عليه في قوله: ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾. واعلم أن الله تبارك وتعالى لا يجرم ما يجرم إلا صيانة لعباده، وحماية لهم من الضرر الموجود في المحرمات، وقد بين للعباد ذلك وقد لا يبين.

فأخبر أنه حرم ﴿الميتة﴾ والمراد

نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفورٌ رحيمٌ .

واليوم المشار إليه يوم عرفة، إذ أتم الله دينه، ونصر عبده ورسوله، وانخذل أهل الشرك انخذلاً بليغاً، بعدما كانوا حريصين على رد المؤمنين عن دينهم، طامعين في ذلك .

فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره، يشسوا كسل اليأس من المؤمنين، أن يرجعوا إلى دينهم، وصاروا يخافون منهم ويخشون، ولهذا في هذه السنة التي حج فيها النبي ﷺ سنة عشر حجة الوداع - لم يحج فيها مشرك، ولم يطف بالبيت عريان .

ولهذا قال: ﴿فلا تخشوهم واخشون﴾ أي: فلا تخشوا المشركين، واخشوا الله الذي نصركم عليهم وخذلهم، ورد كيدهم في نحورهم .

﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع، ولهذا كان الكتاب والسنة كافين كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه .

فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة، من علم الكلام وغيره، فهو جاهل، مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ورسوله .

﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ الظاهرة والباطنة ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ أي: اخترته واصطفيته لكم ديناً، كما ارتضيتكم له، فقوموا به شكراً لربكم، واحمدوا الذي منَّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها .

﴿فمن اضطر﴾ أي: ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات

وقوله: ﴿إلا ما ذكيتم﴾ راجع لهذه المسائل، من منخفة، وموقوذة، ومتردية، ونطيحة، وأكيلة سبع، إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لتتحقق الذكاة فيها، ولهذا قال الفقهاء: «لو أبان السبع أو غيره حشوتها، أو قطع حلقومها، كان وجود حياتها كعدمه، لعدم فائدة الذكاة فيها» أو بعضهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة فإذا ذكاهها وفيها حياة حلت ولو كانت مبانة الحشوة وهو ظاهر الآية الكريمة^(١) .

﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ أي: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام . ومعنى الاستقسام: طلب ما يقسم لكم ويقدر بها، وهي قِداح ثلاثة كانت تستعمل في الجاهلية، مكتوب على أحدها «افعل» وعلى الثاني «لا تفعل» والثالث غفل لا كتابة فيه .

فإذا همَّ أحدهم بسفر أو عرس أو نحوهما، أجال تلك القِداح المتساوية في الجرم، ثم أخرج واحداً منها، فإن خرج المكتوب عليه «افعل» مضى في أمره، وإن ظهر المكتوب عليه «لا تفعل» لم يفعل ولم يمض في شأنه، وإن ظهر الآخر الذي لا شيء عليه، أعادها حتى يخرج أحد القِدحين فيعمل به .

فحرّمه^(٢) الله عليهم الذي في هذه الصورة وما يشبههه، وعضهم عنه بالاستخارة لربهم في جميع أمورهم .

﴿ذلكم فسق﴾ الإشارة لكل ما تقدم من المحرمات، التي حرمها الله صيانة لعباده، وأنها فسق، أي: خروج عن طاعته إلى طاعة الشيطان .

ثم امتنَّ على عباده بقوله:

﴿٣﴾ ﴿اليوم يسئ الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم

بالميتة: ما فقدت حياته بغير ذكاة شرعية، فإنها تحرم لضررها، وهو احتقان الدم في جوفها ولحمها المضر بآكلها . وكثيراً ما تموت بعلة تكون سبباً لهالاكها، فنضر بالآكل . ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسمك، فإنه حلال .

﴿والدم﴾ أي: المسفوح، كما قيد في الآية الأخرى . ﴿ولحم الخنزير﴾ وذلك شامل لجميع أجزائه، وإنما نص الله عليه من بين سائر الخبائث من السباع، لأن طائفة من أهل الكتاب من النصارى يزعمون أن الله أحله لهم . أي: فلا تغتروا بهم، بل هو محرم من جملة الخبائث .

﴿وما أهل لغير الله به﴾ أي: ذكر عليه اسم غير الله تعالى، من الأصنام والأولياء والكواكب وغير ذلك من المخلوقين . فكما أن ذكر الله تعالى يطيب الذبيحة، فذكر اسم غيره عليها، يفيدها خبثاً معنوياً، لأنه شرك بالله تعالى .

﴿والمنخقة﴾ أي: الميتة بخنق، بيد أو حبل، أو ادخالها رأسها بشيء ضيق، فتعجز عن إخراجها حتى تموت .

﴿والموقوذة﴾ أي: الميتة بسبب الضرب بعضاً أو حصى أو خشبة، أو هدم شيء عليها، بقصد أو بغير قصد .

﴿والمتردية﴾ أي: الساقطة من علو، كجبل أو جدار أو سطح ونحوه، فتموت بذلك .

﴿والنطيحة﴾ وهي التي تنطحها غيرها فتموت .

﴿وما أكل السبع﴾ من ذئب أو أسد أو نمر، أو من الطيور التي تفترس الصيود، فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع، فإنها لا تحل .

(١) كذا في ب، وفي أ: كعدمه .

(٢) كذا في النسختين، ولعل الأقرب: فحرم .

﴿٥﴾ ﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا أتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ كرر تعالى إحلل الطيبات لبيان الامتنان، ودعوة للعباد إلى شكره والإكثار من ذكره، حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات.

﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ أي: ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم - يا معشر المسلمين - دون باقي الكفار، فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين، وذلك لأن أهل الكتاب يتسببون إلى الأنبياء والكتب.

وقد اتفق الرسل كلهم على تحريم الذبح لغير الله، لأنه شرك، فاليهود والنصارى يتدينون بتحريم الذبح لغير الله، فلذلك أبيحت ذبائحهم دون غيرهم. والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم، أن الطعام الذي ليس من الذبائح كالخبث والخبثاء ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية، بل يباح ذلك ولو كان من طعام غيرهم.

وأيضاً فإنه أضاف الطعام إليهم. فدل ذلك، على أنه كان طعاماً، بسبب ذبحهم. ولا يقال: إن ذلك للتمليك، وأن المراد: الطعام الذي يملكون. لأن هذا، لا يباح على وجه الغصب، ولا من المسلمين.

﴿وطعامكم﴾ أيها المسلمون ﴿حل لهم﴾ أي: يحل لكم أن تطعموهم إياه ﴿و﴾ أحل لكم ﴿المحصنات﴾ أي: الحرائر العفيفات ﴿من المؤمنات﴾ والحرائر العفيفات ﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أي: من اليهود والنصارى.

وهذا مخصص لقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾

وما أكل منه الجارح فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه.

الثالث: اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما، لقوله: ﴿من الجوارح﴾ مع ما تقدم من تحريم المنخقة. فلو خنقه الكلب أو غيره، أو قتله بثقله لم يباح [هذا بناء على أن الجوارح اللاتي يجرحن الصيد بأنبيائها أو مغالبها، والمشهور أن الجوارح بمعنى الكواسب أي: المحصلات للصيد والمدركات لها فلا يكون فيها على هذا دلالة - والله أعلم -].^(١)

الرابع: جواز اقتناء كلب الصيد، كما ورد في الحديث الصحيح، مع أن اقتناء الكلب محرم، لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه جواز اقتنائه.

الخامس: طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد، لأن الله أباحه ولم يذكر له غسلًا، فدل على طهارته.

السادس: فيه فضيلة العلم، وأن الجارح المعلم - بسبب العلم - يباح صيده، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده.

السابع: أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما، ليس مذمومًا، وليس من العبث والباطل. بل هو أمر مقصود، لأنه وسيلة لحل صيده والانتفاع به.

الثامن: فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد، قال: لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك.

التاسع: فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنه إن لم يسم الله متعمداً، لم يباح ما قتل الجارح.

العاشر: أنه يجوز أكل ما صاده الجارح، سواء قتله الجارح أم لا. وأنه إن أدركه صاحبه، وفيه حياة مستقرة فإنه لا يباح إلا بها.

ثم حث تعالى على تقواه، وحذر من إتيان الحساب في يوم القيامة، وأن ذلك أمر قد دنا واقترب، فقال: ﴿واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾

السابقة، في قوله: ﴿حرمتم عليكم الميتة﴾ ﴿في مخصصة﴾ أي: جماعة ﴿غير متجانف﴾ أي: مائل ﴿لإثم﴾ بأن لا يأكل حتى يضطر، ولا يزيد في الأكل على كفايته ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ حيث أباح له الأكل في هذه الحال، ورحمه بما يقيم به نيته من غير نقص يلحقه في دينه.

﴿٤﴾ ﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾ يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿يسألونك ماذا أحل لهم﴾ من الأطعمة؟ ﴿قل أحل لكم الطيبات﴾ وهي كل ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل، فدخل في ذلك جميع الخبث والخبثاء التي في القرى والبراري، ودخل في ذلك جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البر، إلا ما استثناه الشارع، كالسباع والخبثاء منها.

ولهذا دلت الآية بمفهومها على تحريم الخبثاء، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبثاء﴾.

﴿وما علمتم من الجوارح﴾ أي: أحل لكم ما علمتم من الجوارح إلى آخر الآية. دلت هذه الآية على أمور:

أحدها: لطف الله بعباده ورحمته لهم، حيث وسع عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يذكوه مما صادته الجوارح، والمراد بالجوارح: الكلاب، والفهود، والصقور، ونحو ذلك، مما يصيد بنابه أو بمخلبه.

الثاني: أنه يشترط أن تكون معلمة، بما يعد في العرف تعليماً، بأن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل، ولهذا قال: ﴿تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ أي: أمسكن من الصيد لأجلكم.

ومفهوم الآية، أن الأرقاء من المؤمنات لا يباح نكاحهن للأحرار، وهو كذلك.

وأما الكتابيات فعلى كل حال لا يباحن، ولا يجوز نكاحهن للأحرار مطلقاً، لقوله تعالى: ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾ وأما المسلمات إذا كن رقيقات فإنه لا يجوز للأحرار نكاحهن إلا بشرطين، عدم الطول وخوف العنت.

وأما الفاجرات غير العفيفات عن الزنا فلا يباح نكاحهن، سواء كن مسلمات أو كتابيات، حتى يتبين لقوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾ الآية.

وقوله: ﴿إذا أتيتموهن أجورهن﴾ أي: أبحنا لكم نكاحهن، إذا أعطيتموهن مهرهن، فمن عزم على أن لا يوتيها مهرها فإنها لا تحل له. وأمر بإيئائها إذا كانت رشيدة تصلح للإتياء، وإلا أعطاه الزوج لوليها.

وإضافة الأجور إليهن دليل على أن المرأة تملك جميع مهرها، وليس لأحد منه شيء، إلا ما سمحت به لزوجها أو وليها أو غيرهما. ﴿محصنين غير مسافحين﴾ أي: حالة كونكم - أيها الأزواج - محصنين لنسائكم، بسبب حفظكم لفروجكم عن غيرهن.

﴿غير مسافحين﴾ أي: زاتين مع كل أحد ﴿ولا متخذين أحيان﴾. وهو: الزنا مع العشيقات لأن الزناة في الجاهلية، منهم من يزني مع من كان، فهذا المسافح. ومنهم من يزني مع خدنه ومجبه. فأخبر الله تعالى أن ذلك كله ينافي العفة، وأن شرط التزوج أن يكون الرجل عفيفاً عن الزنا.

وقوله تعالى: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله﴾ أي: ومن كفر بالله تعالى، وما يجب الإيمان به من كتبه ورسله أو شيء من الشرائع، فقد حبط عمله، بشرط أن يموت على كفره، كما قال تعالى: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ أي: الذين

خسروا أنفسهم وأموالهم وأهلهم يوم القيامة، وحصلوا على الشقاوة الأبدية.

﴿٦﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾ هذه آية عظيمة قد اشتملت على أحكام كثيرة، نذكر منها ما يسره الله وسهله.

أحدها: أن هذه المذكورات فيها امتثالها والعمل بها من لوازم الإيمان الذي لا يتم إلا به، لأنه صدرها بقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إلى آخرها. أي: يا أيها الذين آمنوا، اعملوا بمقتضى إيمانكم بما شرعناه لكم.

الثاني: الأمر بالقيام بالصلاة لقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾.

الثالث: الأمر بالنية للصلاة، لقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ أي: بقصدتها ونيتها.

الرابع: اشتراط الطهارة لصحة الصلاة، لأن الله أمر بها عند القيام إليها، والأصل في الأمر بالوجوب إليها، والخامس: أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما تجب عند إرادة الصلاة.

السادس: أن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة، من الفرض والنفل، وفرض الكفاية، وصلاة الجنائز، تشترط له الطهارة، حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء، كسجود التلاوة والشكر.

السابع: الأمر بغسل الوجه، وهو: ما تحصل به المواجهة من منابت شعر الرأس المعتاد، إلى ما انحدر من اللحية والذقن طولاً. ومن الأذن إلى الأذن عرضاً.

ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق، بالسنة، ويدخل فيه الشعور التي فيه.



لكن إن كانت خفيفة فلا بد من إيصال الماء إلى البشرة، وإن كانت كثيفة اكتفى بظاهاها.

الثامن: الأمر بغسل اليدين، وأن حددهما إلى المرفقين و«إلى» كما قال جمهور المفسرين بمعنى «مع»، كقوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ ولأن الواجب لا يتم إلا بغسل جميع المرفق.

التاسع: الأمر بمسح الرأس.

العاشر: أنه يجب مسح جميعه، لأن الباء ليست للتبعية، وإنما هي للملاصقة، وأنه يعم المسح بجميع الرأس.

الحادي عشر: أنه يكفي المسح كيفما كان، بيديه أو إحداهما، أو خرقة أو خشبة أو نحوهما، لأن الله أطلق المسح ولم يقيد بصفة، فدل ذلك على إطلاقه.

الثاني عشر: أن الواجب المسح. فلو غسل رأسه ولم يمر يده عليه لم يكف، لأنه لم يأت بما أمر الله به.

الثالث عشر: الأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين، ويقال فيهما ما يقال في اليدين.

الرابع عشر: فيها الرد على الرافضة، على قراءة الجمهور بالنصب، وأنه لا يجوز مسحهما ما دامتا مكشوفتين.

الخامس عشر: فيه الإشارة إلى مسح

الثالث والأربعون: أن الآية عامة في جواز التيمم، لجميع الأحداث كلها، الحدث الأكبر والأصغر، بل ولنجاسة البدن، لأن الله جعلها بدلاً عن طهارة الماء، وأطلق في الآية فلم يقيد [وقد يقال أن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمم لأن السياق في الأحداث وهو قول جمهور العلماء]^(١).

الرابع والأربعون: أن محل التيمم في الحدث الأصغر والأكبر واحد، وهو الوجه واليدان.

الخامس والأربعون: أنه لو نوى من عليه حدثان التيمم عنهما، فإنه يجزئ أخذاً من عموم الآية وإطلاقها.

السادس والأربعون: أنه يكفي المسح بأي: شيء كان، بيده أو غيرها، لأن الله قال: ﴿فامسحوا﴾ ولم يذكر المسوح به، فدل على جوازه بكل شيء.

السابع والأربعون: اشتراط الترتيب في طهارة التيمم، كما يشترط ذلك في الوضوء، ولأن الله بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين.

الثامن والأربعون: أن الله تعالى - فيما شرعه لنا من الأحكام - لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر، وإنما هو رحمة منه بعباده ليظهرهم، وليتم نعمته عليهم.

وهذا هو التاسع والأربعون: أن طهارة الظاهر بالماء والتراب، تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد، والتوبة النصوح.

الخمسون: أن طهارة التيمم، وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة تدرك بالخش والمشااهدة، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى.

الحادي والخمسون: أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحكم والأسرار في شرائع الله، في الطهارة وغيرها ليزداد معرفة وعلماً، ويزداد شكراً لله ومحبة له، على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

﴿٧٧﴾ واذكروا نعمة الله عليكم

وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور ﴿٧٦﴾ يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية، بقلوبهم وألسنتهم. فإن في استدامة ذكرها داعياً لشكر الله تعالى ومحبته، وامتلاء القلب من إحسانه.

وفيه زوال للعجب من النفس بالنعم الدينية، وزيادة لفضل الله وإحسانه.

﴿وميثاقه﴾ أي: واذكروا ميثاقه ﴿الذي واثقكم به﴾ أي: عهده الذي أخذه عليكم.

وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق، وإنما المراد بذلك أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتهم، ولهذا قال: ﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان وانقياد. وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب. وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وتكون منهم على بال، ويجرّصون على أداء ما أمروا به كاملاً غير ناقص.

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أحوالكم ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعمروا قلوبكم بمعرفته ومحبته والنصح لعباده. فإنكم - إن كنتم كذلك - غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعلمه بصلاح قلوبكم.

﴿٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ أي: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ بما أمروا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم، بأن تكونوا ﴿قوامين لله شهداء بالقسط﴾ بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة

والباطنة وأن يكون ذلك القيام لله وحده، لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن تكونوا قاصدين للقسط، الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط، في أقوالكم ولا أفعالكم، وقوموا بذلك على القريب والبعيد، والصديق والعدو.

﴿ولا يجرمنكم﴾ أي: يحملنكم بغض ﴿قوم على ألا تعدلوا﴾ كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط، بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له، ولو كان كافراً أو متدعياً، فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق، لأنه حق لا لأنه قاله، ولا يرد الحق لأجل قوله، فإن هذا ظلم للحق.

﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ أي: كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى.

﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ فمجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، جزاء عاجلاً، وآجلاً.

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ أي: ﴿وعد الله﴾ الذي لا يخلف اليعاد وهو أصدق القائلين - المؤمنين به ويكتبه ورسله اليوم الآخر، ﴿وعملوا الصالحات﴾ من واجبات ومستحبات - بالمغفرة لذنوبهم، بالغفو عنها وعن عواقبها، وبالأجر العظيم الذي لا يعلم عظمه إلا الله تعالى.

﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾. ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ الدالة على الحق المبين، فكذبوا بها بعدما أبانت الحقائق. ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ الملازمون لها ملازمة صاحب لصاحبه.

﴿١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا

نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿١٢٦﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين بنعمه العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان، وأنهم - كما أنهم يعدون قتلهم لأعدائهم، وأخذ أموالهم وبلادهم وسيبهم نعمة - فليعدوا أيضاً إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم، ورد كيدهم في نحورهم نعمة. فانهم الأعداء قد هموا بأمر، وظنوا أنهم قادرون عليه.

فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم، فهو نصر من الله لعباده المؤمنين ينبغي لهم أن يشكروا الله على ذلك، ويعبدوه ويذكروه، وهذا يشمل كل من هم بالمؤمنين بشر، من كافر و منافق وباغ، كف الله شره عن المسلمين، فإنه داخل في هذه الآية.

ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهم، وعلى جميع أمورهم، فقال: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم، ويشقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون. وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله، وهو من واجبات القلب المتفق عليها.

﴿١٢٦- ١٣﴾ ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزتموه وأقرضتم الله قرضاً حسناً ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴿١٣٠﴾ يخبر تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكد، وذكر صفة الميثاق وأجرهم إن قاموا به، وإثمهم إن لم

يقوموا به، ثم ذكر أنهم ما قاموا به، وذكر ما عاقبهم به، فقال: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ أي: عهدهم المؤكد الغليظ، ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ أي: رئيساً وعريفاً على من تحته، ليكون ناظراً عليهم، حاثاً لهم على القيام بما أمروا به، مطالباً يدعوهم.

﴿وقال الله﴾ للنقباء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا: ﴿إني معكم﴾ أي: بالعون والنصر، فإن المعونة بقدر المؤنة.

ثم ذكر ما واثقهم عليه فقال: ﴿لئن أقمتم الصلاة﴾ ظاهراً وباطناً، بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها، والمداومة على ذلك ﴿وآتيتم الزكاة﴾ لمستحقيها ﴿وآمنتم برسلي﴾ جميعهم، الذين أفضلهم وأكملهم محمد ﷺ، ﴿وعزتموه﴾ أي: عظمتموهم، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة ﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾ وهو الصدقة والإحسان، الصادر عن الصدق والإخلاص وطيب المكسب، فإذا قمتم بذلك ﴿لأكفرنَّ عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾. فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم، واندفاع المكروه بتكفير السيئات، ودفع ما يترتب عليها من العقوبات.

﴿فمَنْ كفر بعد ذلك﴾ العهد والميثاق المؤكد بالإيمان، والالتزامات المقرون بالترغيب بذكر ثوابه.

﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أي: عن عمد وعلم، فيستحق ما يستحقه الضالون من حرمان الثواب، وحصول العقاب. فكأنه قيل: ليت شعري ماذا فعلوا؟ وهل وفوا بما عاهدوا الله عليه، أم نكثوا؟

فبين أنهم نقضوا ذلك فقال: ﴿فيما نقضهم ميثاقهم﴾ أي: بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات:

الأولى: ﴿لعنناهم﴾ أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يقوموا بالعهد الذي أخذ عليهم، الذي

هو سببها الأعظم.

الثانية: قوله: ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ أي: غليظة لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبهم تشويق، ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد، أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيد الهدى والخير إلا شراً.

الثالثة: أنهم ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ أي: ابتلوا بالتغيير والتبديل، فيجعلون للكلم الذي أراد الله معنى غير ما أراد الله ولا رسوله.

الرابعة: أنهم ﴿نسوا حظاً مما ذكروا به﴾ فإنهم ذكروا بالتوراة، وبما أنزل الله على موسى، فنسوا حظاً منه، وهذا شامل لنسيان علمه، وأنهم نسوه وضاع عنهم، ولم يوجد كثير مما أساهم الله إياه عقوبة منه لهم.

وشامل لنسيان العمل الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به، ويستدل بهذا على أهل الكتاب بإنكارهم بعض الذي قد ذكر في كتابهم، أو وقع في زمانهم، أنه مما نسوه.

الخامسة: الخيانة المستمرة التي ﴿لا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ أي: خيانة لله ولعباده المؤمنين.

ومن أعظم الخيانة منهم، كتمهم [عن] من يعظهم ويحسن فيهم الظن الحق، وإبقاؤهم على كفرهم، فهذه خيانة عظيمة. وهذه الخصال الذميمة، حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم.

فكل من لم يقم بما أمر الله به، وأخذ به عليه الالتزام، كان له نصيب من اللعنة وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق للصواب، ونسيان حظ مما ذكر به، وأنه لا بد أن يتبلى بالخيانة، نسأل الله العافية.

وسمى الله تعالى ما ذكروا به حظاً، لأنه هو أعظم الحظوظ، وما عداه فإنما هي حظوظ دنيوية، كما قال تعالى: ﴿فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما



من اليهود والنصارى، وأنهم نقضوا ذلك إلا قليلاً منهم، أمرهم جميعاً أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، واحتج عليهم بآية قاطعة دالة على صحة نبوته، وهي: أنه بين لهم كثيراً مما يخفون عن الناس، حتى عن العوام من أهل ملتهم، فإذا كانوا هم المشار إليهم في العلم ولا علم عند أحد في ذلك الوقت إلا ما عندهم، فالخريف على العلم لا سبيل له إلى إدراكه إلا منهم، فإتيان الرسول ﷺ بهذا القرآن العظيم الذي بين به ما كانوا يتكاثفونه بينهم، وهو أسمى لا يقرأ ولا يكتب - من أدل الدلائل على القطع برسالته، وذلك مثل صفة محمد في كتبهم، ووجود البشائر به في كتبهم، وبيان آية الرجم ونحو ذلك.

﴿ويعفو عن كثير﴾ أي: يترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة.

﴿قد جاءكم من الله نور﴾ وهو القرآن، يستضاء به في ظلمات الجهالة وعباية الضلالة.

﴿وكتاب مبين﴾ لكل ما يحتاج الخلق إليه من أمور دينهم ودنياهم. من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية.

ثم ذكر من الذي يستدي بهذا القرآن، وما هو السبب الذي من العبد لحصول ذلك، فقال: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام﴾ أي: يهدي به من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله، وصار قصده حسناً - سبيل السلام التي تسلم صاحبها من العذاب، وتوصله إلى دار السلام، وهو العلم بالحق والعمل به، إجمالاً وتفصيلاً.

﴿ويخرجهم من ظلمات الكفر والبدعة والمعصية، والجهل والغفلة، إلى نور الإيمان والسنة، والطاعة، والعلم، والذكر.

وكل هذه الهداية بإذن الله، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾.

﴿١٧ - ١٨﴾ ﴿لقد كفر الذين

أوتى قارون، إنه لذو حظ عظيم﴾ وقال في الحظ النافع: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾.

وقوله: ﴿إلا قليلاً منهم﴾ أي: فإنتهم وفوا بما عاهدوا الله عليه فوفقهم وهداهم للصرط المستقيم.

﴿فأعف عنهم واصفح﴾ أي: لا تؤاخذهم بما يصدر منهم من الأذى، الذي يقتضي أن يعفى عنهم، واصفح، فإن ذلك من الإحسان. إن الله يحب المحسنين. والإحسان: هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه، فإنه يراك.

وفي حق المخلوقين: بذل النفع الديني والدنيوي لهم.

﴿١٤﴾ ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينتههم الله بما كانوا يصنعون﴾ أي: وكما أخذنا على اليهود العهد والميثاق، فكذلك أخذنا على الذين قالوا إنا نصارى لعيسى ابن مريم، وزكوا أنفسهم بالإيمان بالله ورسله وما جاؤوا به، فنقضوا العهد، ﴿فنسوا حظاً مما ذكروا به﴾ نسياناً علمياً، ونسياناً عملياً.

﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ أي: سلطنا بعضهم على بعض، وصار بينهم من الشرور والإحسان ما يقتضي بغض بعضهم بعضاً ومعاداة بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة، وهذا أمر مشاهد، فإن النصارى لم يزلوا ولا يزالون في بغض وعداوة وشقاق. ﴿وسوف ينتههم الله بما كانوا يصنعون﴾ فيعاقبهم عليه.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيراً مما كنتم تحفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ ﴿يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ لما ذكر تعالى ما أخذه الله على أهل الكتاب

قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً والله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير * وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر من خلق يقفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله مالك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾ لما ذكر تعالى أخذ الميثاق على أهل الكتابين، وأنهم لم يقوموا به بل نقضوه، ذكر أقوالهم الشنيعة.

فذكر قول النصارى، القول الذي ما قاله أحد غيرهم، بأن الله هو المسيح ابن مريم، ووجه شبهتهم أنه ولد من غير أب، فاعتقدوا فيه هذا الاعتقاد الباطل. مع أن حواء نظيره، خلقت بلا أم، وأدم أولى منه، خلقت بلا أب ولا أم، فهلا ادعوا فيها الإلهية كما ادعوا في المسيح؟

فدل على أن قولهم اتباع هوى من غير برهان ولا شبهة. فردَّ الله عليهم بأدلة عقلية واضحة فقال: ﴿قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً﴾.

فيذا كان المذكورون لا امتناع عندهم يمنعه لو أراد الله أن يهلكهم،



من مذهبهم إلا مذهب النصارى في المسيح.

قال الله ردأ عليهم حيث ادعوا بلا برهان: ﴿قُلْ لِمَ يَعْذِبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟﴾ فلو كنتم أحبابة ما عذبكم [لكون الله لا يجب إلا من قام بمراضيه] (٢).

﴿بل أنتم بشر من خلق﴾ تجري عليكم أحكام العدل والفضل ﴿يعفّر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب، ﴿ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾ أي: فأي شيء خصكم بهذه الفضيلة، وأنتم من جملة المماليك ومن جملة من يرجع إلى الله في الدار الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم.

﴿١٩﴾ ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير﴾ يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب - بسبب ما من عليهم من كتابه - أن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ، ويشكروا الله تعالى الذي أرسله إليهم على حين ﴿فترة من الرسل﴾ وشدة حاجة إليه.

وهذا مما يدعو إلى الإيمان به، وأنه يبين لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية.

وقد قطع الله بذلك حججهم، لثلا يقولوا: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير﴾ يبشر بالثواب العاجل والأجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها. وينذر بالعقاب العاجل والأجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها.

﴿والله على كل شيء قدير﴾ انقادت الأشياء طوعاً وإذعاناً لقدرته، فلا يستعصي عليه شيء منها، ومن قدرته أن أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأنه يثيب من أطاعهم ويعاقب من عصاهم.

﴿٢٠-٢٦﴾ ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة ﴿إلى آخر القصة﴾ (٣). لما امتن الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه وأسرهم واستعبادهم، ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومساكنهم، وهي بيت المقدس وما حواله، وقاربوا وصول بيت المقدس، وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم. فوعظهم موسى عليه السلام؛ وذكرهم ليقدموا على الجهاد فقال لهم: ﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾

بقلوبكم وألسنتكم. فإن ذكرها داع إلى محبة تعالى ومنشط على العبادة، ﴿إذ جعل فيكم أنبياء﴾ يدعونكم إلى الهدى، ويحذرونكم من الردى ويحثونكم على سعادتكم الأبدية، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ تملكون أمركم، بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم، فكنتم تملكون أمركم، وتمتكون من إقامة دينكم.

﴿وآتاكم﴾ من النعم الدينية والدنيوية ﴿ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق، وأكرمهم على الله تعالى. وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم.

فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية، الداعي ذلك لإيمانهم وثباتهم على الجهاد، وإقدامهم عليه، ولهذا قال: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾ أي: المطهرة ﴿التي كتب الله لكم﴾.

فأخبرهم خبراً تطمئن به أنفسهم، إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله، وأنه قد كتب الله لهم دخولها، وانتصارهم على عدوهم.

﴿ولا تردنوا﴾ أي: ترجعوا ﴿على أديباركم، فتنقلبوا خاسرين﴾ قد

ولا قدرة لهم على ذلك - دل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك، ولا في قوته شيء من الفكاك.

ومن الأدلة أن ﴿الله﴾ وحده ﴿ملك السماوات والأرض﴾ يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون، فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير، إلهاً معبوداً غنياً من كل وجه؟ هذا من أعظم المحال.

ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب، فإن الله ﴿يخلق ما يشاء﴾ إن شاء من أب وأم، كسائر بني آدم، وإن شاء من أب بلا أم، كحواء. وإن شاء من أم بلا أب، كعيسى. وإن شاء من غير أب ولا أم [كآدم] (١).

فروع خليفته تعالى بمشيئته النافذة، التي لا يستعصي عليها شيء، ولهذا قال: ﴿والله على كل شيء قدير﴾.

ومن مقالات اليهود والنصارى أن كلاً منهما ادعى دعوى باطلة، يزكون بها أنفسهم، بأن قال كل منهما: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾.

والابن في لغتهم هو الخبيث، ولم يريدوا البتة الحقيقية، فإن هذا ليس

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب: كتب الآيات إلى قوله: ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾.



المقربة إليه، الجهاد في سبيله، وهو: بذل الجهد في قتال الكافرين بالمال، والنفس، والرأي، واللسان، والسعي في نصر دين الله بكل ما يقدر عليه العبد، لأن هذا النوع من أجل الطاعات وأفضل القربات.

ولأن من قام به، فهو على القيام بغيره أخرى وأولى ﴿لعلكم تفلحون﴾ إذا اتقيتم الله بترك المعاصي، وابتغيتم الوسيلة إلى الله، بفعل الطاعات، وجاهدتم في سبيله ابتغاء مرضاته.

والفلاح هو الفوز والظفر بكل مطلوب مرغوب، والنجاة من كل مرهوب، فحقيقته السعادة الأبدية والنعيم المقيم.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَن لَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ يُخَيَّرُ تَعَالَى عَنْ شِنَاعَةِ حَالِ الْكَافِرِينَ بِاللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَأْلَهُمُ الْقُضَيْعُ، وَأَنَّهُمْ لَوْ افْتَدَوْا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِمَلَأَ الْأَرْضَ ذَهَبًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ مَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ، وَلَا أَفَادَ، لِأَنَّ مَحَلَّ الْإِفْتِدَاءِ قَدَفَاتٌ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْعَذَابُ الْأَلِيمُ، الْمَوْجِعُ الدَّائِمُ الَّذِي لَا يَخْرُجُونَ مِنْهُ أَبَدًا، بَلْ هُمْ مَأْكُوثُونَ فِيهِ سَرْمَدًا.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ

بِالْكُفْرِ وَالْقَتْلِ، وَأَخَذَ الْأَمْوَالِ، وَإِخَافَةَ السَّبِيلِ.

المشهور أن هذه الآية الكريمة في أحكام قطاع الطريق، الذين يعرضون للناس في القرى والبادية، فيغصبونهم أموالهم، ويقتلونهم، ويخيفونهم، فيمتنع الناس من سلوك الطريق التي هم بها، فتقطع بذلك.

فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم - عند إقامة الحد عليهم - أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور. واختلف المفسرون: هل ذلك على التخبير، وأن كل قاطع طريق يفعل به الإمام أو نائبه ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة؟ وهذا ظاهر اللفظ، أو أن عقوبتهم تكون بحسب جرائمهم، فكل جريمة لها قسط يقابلها، كما تدل عليه الآية بحكمتها وموافقها لحكمة الله تعالى. وأنهم إن قتلوا وأخذوا مالا لم تحتتم قتلهم وصلبهم، حتى يشتهروا ويختزوا ويرتدع غيرهم.

وإن قتلوا ولم يأخذوا مالا لم تحتتم قتلهم فقط. وإن أخذوا مالا ولم يقتلوا تحتّم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، اليد اليمنى والرجل اليسرى. وإن أخافوا الناس ولم يقتلوا، ولا أخذوا مالا، نسوا من الأرض، فلا يتركون يأوون في بلد حتى تظهر توبتهم. وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه وكثير من الأئمة، على اختلاف في بعض التفاصيل.

﴿٣٥﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ هذا أمر من الله لعباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان من تقوى الله والحذر من سخطه وغضبه، وذلك بأن يجتهد العبد، ويذل غاية ما يمكنه من المقدور في اجتناب ما يسخطه الله، من معاصي القلب واللسان والجوارح، الظاهرة والباطنة. ويستعين بالله على تركها، لينجو بذلك من سخط الله وعذابه.

﴿٣٥﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي: القرب منه، والحظوة لديه، والحب له، وذلك بأداء فرائضه القلبية، كالحب له وفيه، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل.

والبدينية: كالزكاة والحج. والمركبة من ذلك كالصلاة ونحوها، من أنواع القراءة والذكر، ومن أنواع الإحسان إلى الخلق بالمال والعلم والجاه، والبدن، والنصح لعباد الله، فكل هذه الأعمال تقرب إلى الله. ولا يزال العبد يتقرب بها إلى الله حتى يحبه الله، فإذا أحبه كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبسط بها، ورجله التي يمشي بها [بها] ويستجيب الله له الدعاء.

﴿٣٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي: القرب منه، والحظوة لديه، والحب له، وذلك بأداء فرائضه القلبية، كالحب له وفيه، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل.

والبدينية: كالزكاة والحج. والمركبة من ذلك كالصلاة ونحوها، من أنواع القراءة والذكر، ومن أنواع الإحسان إلى الخلق بالمال والعلم والجاه، والبدن، والنصح لعباد الله، فكل هذه الأعمال تقرب إلى الله. ولا يزال العبد يتقرب بها إلى الله حتى يحبه الله، فإذا أحبه كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبسط بها، ورجله التي يمشي بها [بها] ويستجيب الله له الدعاء.

﴿٣٧﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي: القرب منه، والحظوة لديه، والحب له، وذلك بأداء فرائضه القلبية، كالحب له وفيه، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل.

﴿٣٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي: القرب منه، والحظوة لديه، والحب له، وذلك بأداء فرائضه القلبية، كالحب له وفيه، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل.